مرايا الذات

بحثٌ عن الحقيقة

تأليف
د. يحيى أحمد المرهبي

مرايا الذات

بحث عن الحقيقة

تأليف

د/ يحيى أحمد المرهبي

مراجعة وتنسيق

د/بكيل المراني

١٤٤٣هـ - ٢٠٢٢م

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى روح من كانا مرآة للقلب...

أبي وأمي عليهما من الله وافر الرحمات.

وإلى من كانوا بالنسبة لي مرآة للعقل ...

أساتذتي ومشائخي في العلم. هذه واحدة من

المرايا التي صقلتموها، فكانت مرآة مستوية، بعيدة عن أن تكون مرآة محدبة أو مقعرة.

وإلى شباب هذا الوطن المعطاء الباحثين عن الحقيقة

ها هي مرايا الذات تكشف لكم بعضا من بنود هذه الحقيقة.

وإلى كل من لقيته وأنا سائر على درب الحياة، فكان

مرآة لي، رأيت فيها نفسي، وكنت مرآة له رأى

فيها نفسه .... والمؤمن مرآة أخيه.

إلى كل إنسان قرأ هذه المرايا فطالع فيها بعض

أشجان قلبه، وبعض فضاءات عقله.

إلى كل هؤلاء جميعا وإلى غيرهم أهدي مرايا قلبي

وعقلي، فتقبلوها بقبول حسن.

فهي بإذن الله ستنبت نباتا حسنا، ولا تنسوا

صاحبها من دعوات ينتظرها بظهر الغيب.

صاحب المرايا والباحث عن الحقيقة ... د. يحيى المرهبي

شكرًا

اللهم لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، لك الحمد حتى ترضى ولك الحمد بعد الرضى ولك الحمد إذا رضيت، لك الحمد ملء السماوات وملء الأرض وملء ما بينهما وملء ما شئت من شيء بعد أهل الثناء والمجد أحق ما قال العبد وكلنا لك عبد، اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد.

إن كان هناك من حمد وشكر وعرفان فهو لصاحب الحمد والشكر جل في علاه.

وإن كان هناك من منَّة فهي لصاحب المنِّ والعطاء تبارك في علاه.

وإن كان هناك من اتباع ومحبة، فهي للرحمة المهداة والنعمة المسداة صلوات ربي وسلامه عليه.

الشكر والعرفان الجزيل مبذول وممنوح لأفراد عائلتي الأفاضل، رفيقة الدرب زوجتي، وأبنائي وبناتي وأحفادي، فقد كان لتعاونهم وتهيئتهم البيت ليكون عونا لي أكبر الأثر، فجزاهم الله عني خير الجزاء وبارك فيهم.

والشكر موصول للأفاضل الذين كانوا يتابعون صفحتي على الفيسبوك أو في مجموعات الواتس، والتي نشرت على صفحاتها متن هذا الكتاب على شكل حلقات أسبوعية متسلسلة على مدى أكثر من عام، وكان لردودهم ومداخلاتهم الأثر الكبير في إخراج هذا الكتاب في صورته التي تجدونها بين أيديكم، فلهم خالص التحية والتقدير.

والشكر والتقدير للأخ العزيز د. بكيل علي محمود المراني على ما قام به من جهد مخلص لمراجعة هذا الكتاب، وإعداد تصميماته الداخلية، ووضع لمساته الفنية والجمالية على صفحات هذا الكتاب، التي زادته ألقا ونورا إلى نوره ،

والشكر موصول كذلك للأستاذ يحيى مقدم على تصميم غلاف الكتاب.

فللجميع مني جزيل الشكر والتقدير.

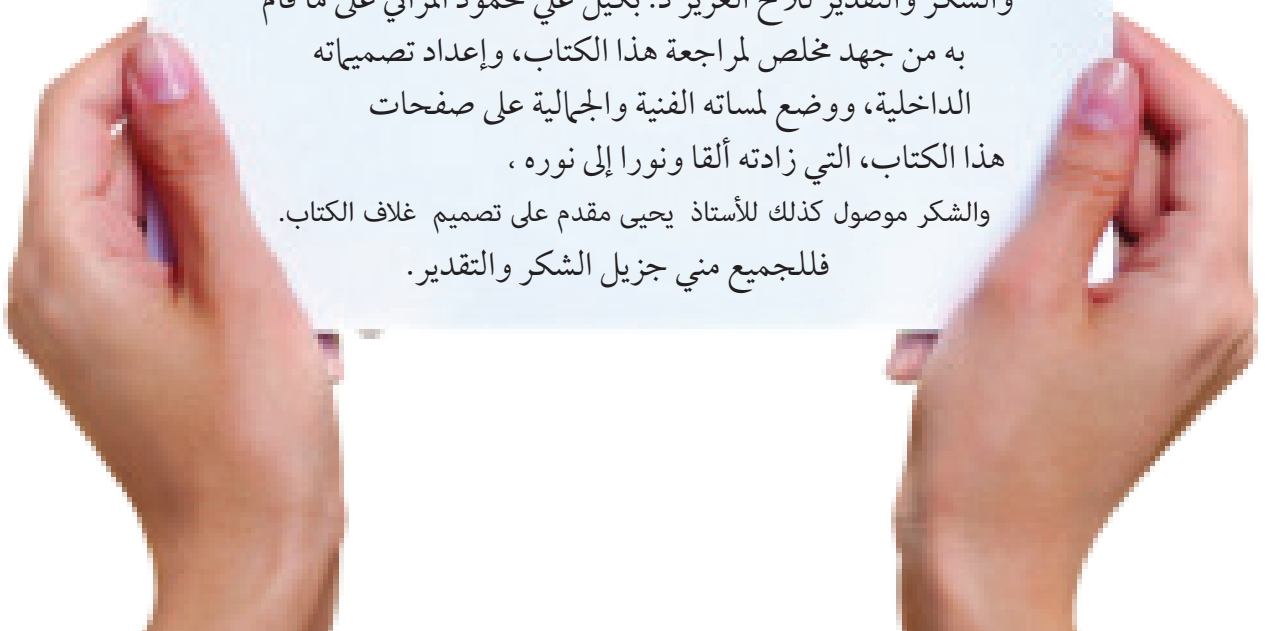

استهلال

مرايا الذاتِ تُظهِرُ كلَّ خافٍ
وتحكي عن حقيقةِ ما نُخَبّي
تُنبّئُ عن خفايانا بحقٍّ
فما أحلى وأصدقَ ما تُنبّي!
تعالوا أخرِجوا الصدّيقَ فيكم
فَدَلْوُ الدينِ يكشفُ كلَّ جُبٍّ
وفي أعماقِ أنفسنا ذئابٌ
ويوسفُ قد يكونُ طعامَ ذئبِ
تعالوا وانظروا صدقَ المرايا
وقد مسَحَت غشاوةَ كلّ قلبِ
بمرآةِ الحقيقةِ في مَدانا
سنستَجلي العدوَّ مِن المُحبِّ
مرايا الذاتِ لا تحوي زجاجًا
ولا تُخفي المرايا أيَّ عيبِ

محمد السلمي

المحتويات

- مقدمة المرايا..... ..... ٨
- المنهجية القارئة للمرايا..... ١٨
- المرايا الذاتية بين عقدتي النقص والاستعلاء..... ٣٢
- مرآة الفطرة. مركزية الأصيل في مواجهة الدخيل... ٥٩
- مرآة الشريعة. تناغم وانسجام مع الفطرة..... ٩٣
- المرايا المجتمعية. مسايرة ومغايرة وإبداع ١٠٥
- المرايا التاريخية. فاعتبروا يا أولي الأبصار..... ١٢٩
- المرايا اللغوية ما نجيد فهمه نجيد التعبير عنه.....١٤٥
- المرايا الحضارية. شهود يرفض الجمود والذوبان.... ١٦٧
- المرايا الإنسانية . كلكم لآدم..... ..... ١٨٩
- مرايا الآخر. كيف نستفيد منه وكيف نتقي شره...٢٠٢
- نبذة عن المؤلف..... ٢١٩

مقدمة المرايا

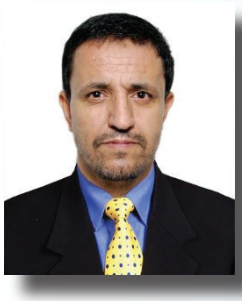

أرقى أنواع الوعي هو الوعي بالذات، وأعظم أنواع الجهل هو الجهل بها. والوعي بالذات ليس انغلاقا عليها، ولا تعبدا في محرابها، وفق تعبير (الدكتور/ عبد الكريم بكار، فصول في التفكير الموضوعي)، ولكنه الإدراك الحسن لحدودها وشروط وجودها والظروف الأكثر ملاءمة للحفاظ عليها وترقية درجة عطائها، في عملية بنائية سماها د. الدكتور عبد الكريم بكار (الرحلة إلى الذات)، وكتب تحت هذا العنوان ثلاثة من أروع كتبه، وسماها د. شريعتي (العودة إلى الذات)، وكتب تحت هذا العنوان واحدا من أعمق كتبه.

والمتأمل في حقيقة الذات يجد أن لها مكونات ثلاثا تتعرف بها على ذاتها تتمثل في:

١-ما يتصوره الإنسان عن نفسه.

٢-ما يتصوره الآخرون عنه.

٣-ما يعتقده الإنسان عن تصور الآخرين له.

وأهم مكونين للذات هما المكون الأول والثالث، فهما ما يستطيع الإنسان التحكم فيهما، وضبط إيقاعهما، والسعي

لتنميتهما، وهذا بدوره ينعكس على المكون الثاني المتعلق بتصور الآخرين عنه، وقد صدق المتنبي حين قال:

ولم أر في عيوب الناس عيبا

كنقص القادرين على التمام.

وفلسفة المفكر الإسلامي محمد إقبال في أمر الذات تعطينا بعدا أعمق لفهمها، حيث ذكر أن الذات تعتمد على أمرين رئيسيين هما: ١-نفي الذات. ٢ -إثبات الذات. (نفي الذات) مقابل الإله العظيم من خلال العبودية الكاملة والخضوع الكامل لله سبحانه وتعالى. و(إثبات الذات) مقابل ما دون الإله فيكون المسلم خليفة شأنه أن يسود.

هذه الثنائية مدخل متميز لفهم أين تنتهي (العبودية)، وأين يبدأ (الاستخلاف)، وهي معادلة استراتيجية لبناء الذات على أرض صلبة، قلّما يدركها الكثيرون.

في ذات النفس ألا تسمع صوتا يدعوك إلى القمة

وينادي الذات لكي ترجع وتصاحب في الخير الهمة

إن هناك ثلاث خطوات للتعامل مع الحقيقة، كما يذكر أحد المفكرين: الأولى اكتشافها، والثانية الإعلان عنها، والثالثة اختيار الطريقة المناسبة للإعلان عنها. الخطوة الأولى تحتاج إلى (بصيرة)، والثانية تحتاج إلى (شجاعة)، والثالثة

تحتاج إلى (فقه). وإذا اختلفنا في الخطوة الأولى فنحن مختلفون في الحقيقة، وإذا اختلفنا في الثانية فنحن مختلفون في الشجاعة، أما إذا اختلفنا في الثالثة فنحن مختلفون في الفهم. وهنا ينبغي أن يعذر بعضنا بعضا دون لوم.

وقد كانت الحقائق التي ترد إلينا عن ذواتنا في الماضي أقرب ما تكون إلى الاتصال والاكتمال، والآن يقذف بها إلينا شظايا متناثرة، علينا أن نلمّ شتاتها، ونستخلص الجوهر من قلب فوضاها، هذا من جانب، ومن جانب آخر، علينا أن نعرض هذه الحقائق عن ذواتنا على مرايا تعرِّفها حقيقتها كما هي فعلا، لا كما نحب أن نراها، حتى لا نخدع ذواتنا بشخصيات ليست لنا، وهذا هو ما جعل أحد الشعراء يزهد بالأندلس في أواخر أيامها، عندما وجد أن ذوات أهلها ذوات مزيفة، لا تمت إلى الواقع بصِلة، وإنما هي أسماء وألقاب وليس وراء ذلك شيء، فقال:

مما يزهدني في أرض أندلس
ألقاب معتمد فيها ومعتضد
ألقاب مملكة في غير موضعها
كالهر يحكي انتفاخا صولة الأسد

إن هناك أناسا كثيرين يظنون أنهم يفكرون، وهم في حقيقة أمرهم لا يفعلون سوى إعادة ترتيب انحيازاتهم، واجترار أفكارهم وأفكار غيرهم لكي يستمروا في الوضع الذي هم

فيه دون أي تغيير يذكر.

ولقد كان الأديب المصري مصطفي لطفي المنفلوطي صادقا عندما قال في كتابه العبرات: «الآن عرفت أن الوجوه (مرايا) النفوس، تضيء بضيائها، وتظلم بظلامها». والوجوه بالفعل (مرايا) تريك أسرار البرايا، وهي تعكس ما بداخل الإنسان مهما حاول أن يخفيه، وتأمل معي قوله تعالى: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ [المطففين: ٢٤]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾[الحج: ٧٢]، تجد أن هناك فرقا واضحا بين وجه ووجه، وكل وجه من هذه الوجوه مرآة تعكس ما بداخل صاحبها، والعين كإحدى جوارح الوجه مرآة صافية تكشف عن جوهر صاحبها.

تريك أعينهم ما في صدورهم

إن العيون يؤدي سرها النظر

وسنفصل الأمر بشكل أوسع عندما نتحدث عن المرايا الذاتية.

إن أي فرد تراه يعاني من خصلة التعاظم والتعالي، يحق لك أن تصنفه في أصحاب ثقافة الاستكبار والاستعلاء، ورحم الله من سمّى أصحاب هذه الصفات بأصحاب «المرايا المحدبة»؛ ذلك لأنهم ينبهرون بذواتهم أيّما انبهار، وينتقصون من

أقدار غيرهم ممن لم يكونوا على ما هم عليه؛ فكأنهم حين يرون ما يخصهم يستخدمون «مرايا محدبة»، وهي المرايا التي من خصائصها عكس الصورة بشكل أكبر من حقيقتها، وإن أرادوا رؤية غيرهم استخدموا «مرايا مقعرة»، وهي التي من خصائصها تصغير الأجسام التي تنعكس عليها.

وفي علاقاتنا مع ذواتنا ومع بعضنا البعض، كثيرا ما نلجأ إلى استخدام المرآة المقعرة (المُصغِّرة)، والمرآة المحدبة (المُكبِّرة)، في تقييمنا لذواتنا ولغيرنا، ونُعرض عن استخدام المرآة (المستوية)، التي تظهر الأشياء على حقيقتها، وكما هي في الواقع.

نستخدم المرآة المحدبة (المُكبِّرة) مع ذواتنا لنكبّر بها حسناتنا ونضخّمها، بينما نستخدم المرآة المقعرة (المُصغِرة)، مع سيئاتنا وعيوبنا لنُصغّرها، ونعمل على تلاشيها، وفي المقابل وبصورة عكسية، نستخدم المرآة المحدبة مع خصومنا، لنكبّر سيئاتهم ونضخمها، كما نستخدم المرآة المقعرة لنُصغّر حسنات الخصوم حتى تتلاشى، وتلك والله قسمة ضيزى، أتدرون لماذا؟

سأقول لكم لماذا؟ لأن المرآة المحدبة (المكبِّرة) في حالنا تجعلنا نطمئن إلى ما لدينا ونُعرض عن نقد الآخرين لنا، ونظن أننا على المحجة البيضاء، وهي في حال خصومنا، تظهرهم وكأنه لا شيء عندهم، وكأن حتى حسناتهم سيئات،

فنغتر بما عندنا، ولا نستفيد مما عند غيرنا.

ولأن المرآة المقعرة (المصغِّرة) في حالنا، تُظهرنا بلا عيوب، وتظهر الخصوم وكأنهم بلا حسنات، وفي هذه الحال، لا نحن الذين عرفنا عيوبنا، وحاولنا إصلاحها، ولا نحن الذين أنصفنا خصومنا، واستفدنا من حسناتهم.

صديقي العزيز: التقييم بالمرآتين السابقتين (المحدّبة والمقعّرة) خطأ على الذات وعلى الآخرين، ونحن مُطالبون باستخدام المرآة (المستوية) التي تُظهرنا على حقيقتنا، وتُظهر خصومنا على حقيقتهم، فنستفيد من حسناتنا وحسنات خصومنا، وننميها ونبني عليها، كما نستفيد من سيئاتنا وسيئات خصومنا، بمحاولة إصلاحها، وتجنب الوقوع فيها، وعدم تكرار السقوط فيها مستقبلا.

ومن الأمور التي لا بد أن ندركها على حقيقتها، أنه من السهل أن ينقد المرء الآخرين، أما نقده لنفسه فيعدُّ من أصعب الأمور. ولا يرجع ذلك إلى أسباب نفسية، أو إلى الاعتزاز بالذات فحسب، كما يؤكد على ذلك (الدكتور فؤاد زكريا، التفكير العلمي، ٢١٣ -٢١٤)، بل يرجع ذلك إلى صعوبة عملية النقد التي يمارسها المرء نحو ذاته. فحين يكون النقد موجها إلى الآخرين، يكون ذهن الناقد ذهنا جديدا (أضيف) إلى ذهن صاحب الرأي الذي ينقده. وكل ذهن جديد يستطيع أن يتأمل الموضوع من زاوية جديدة،

ويرى فيه جوانب ربما لم يكن صاحب الرأي الأصلي قدّرها أو أضفي عليها الأهمية التي تستحقها. أما في حالة (النقد الذاتي) -وسيكون لنا معه وقفة في المقالات القادمة كأحد مرايا الذات -فإن الذهن الواحد هو الذي يضع الرأي الأصلي، وهو نفسه الذي ينبغي أن يتأمل هذا الرأي الأصلي بنظرة ناقدة.

ومثل هذا التأمل النقدي يغدو عسيرا في هذه الحالة، والأرجح وفق رؤية الدكتور فؤاد زكريا أن يظل المرء متمسكا بنفس وجهة النظر القديمة، لأن عاداته الفكرية وتكوينه الخاص يؤديان به، غالبا، إلى نفس النتائج التي انتهى إليها من قبل، ولأن من الصعب أن ينسلخ المرء تماما عن طريقته السابقة في النظر، ويتأمل موضوعه بأعين جديدة.

إن أصحاب عادة العجز عن رؤية الذات، لا يرون أنفسهم إلا من خلال رؤية الآخرين لهم، وهو ما نسميه (المِرآة الاجتماعية)، أي آراء الناس فيهم وأقاويلهم وتصوراتهم عنهم. وحين تكون المرآة الاجتماعية هي المصدر الوحيد لرؤية أنفسنا، فسوف تكون صورة ذواتنا لدينا مثل انعكاسات أنواع المرايا، التي تظهر فيها الصورة تارة مصغّرة، وتارة مكبّرة، وتارة مفلطحة، وتارة مكسّرة، وتارة تظهر فيها العينان جاحظتين، وتارة صغيرتين مثل الثقوب.

وهكذا تكون تصوراتنا عن ذواتنا الفردية والوطنية والقومية

من خلال اختلاف المرايا الاجتماعية. فتارة يقال لنا، وأحيانًا نقول عن ذواتنا فيما يشبه (عقدة النقص)، أو رؤية أنفسنا في مرايا مقعرة، قولا يشبه ما وصفه الدكتور ماجد عرسان الكيلاني في كتابه (التربية والتجديد، ٠٤) من أن:

- الشرقي بطبيعته كسول يكره العمل والنظام.

- العربي بتكوينه النفسي ضد الوحدة والتعاون.

- اللغة العربية لغة ثقافة وبيان، وليست لغة علم.

- المسلم يصبر على الظلم بانتظار مخلص من السماء.

- العربي عدواني بتكوينه النفسي.

ولذا، وحتى يتخلص الإنسان من أسر المرآة الاجتماعية، يتعين عليه استخدام عقله كمرآة، دون أن يقبل شيئا أو يرفضه إلا وفق دليل وحُجّة وبرهان واضح، إن هذه المرآة (العقل) يجب أن يستفيد منها الإنسان ليرى نفسه أولاً في كل مرة يرى فيه الآخر خصماً تجب كراهيته، فهناك من يبحث عن القشة في عين خصمه ولا يرى الجذع في عينه هو.

وهناك حديث عظيم يرويه أبو هريرة رضي الله عنه موقوفاً، عن عبد الله بن رافع عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: (المؤمن مرآة أخيه، إذا رأى فيه عيباً أصلحه)، ومعنى (المؤمن مرآة أخيه) أنه مقوِّم له ومصحِّح لمساره؛ لأن الإنسان إذا لبس

ثوبه نظر في مرآته ليصحح من وضعه، وليرى خطأه في ذلك، ويرى في المرآة ليستكشف ما لا يحب أن يطلّع عليه الناس؛ لأن العين لا تبصر جبهته، ولا تبصر وجنته، فيستعين بهذه المرآة.

ولا شك أن الإنسان يحتاج إلى مثل هذه المرآة، ويفتقر إليها، فلو تصورنا أن في المرآة غبشاً أو نوعاً من الضباب أو نوعاً من الغبار فما تراه يصنع؟ هل تراه يعمد إليها، فيكسرها فيفقد خيرها فلا ينتفع بها ألبتّة، أم تراه يتلطّف بها ويمسح عنها غبارها، وينظفها بكل أسلوب حسن يستطيعه حتى ينتفع بها؟ إن كان فيها الغبار ولم يزله بقي عليها، وإن كسرها أو استغنى عنها لم يزل مفتقراً إليها؛ وكذلك الأمر ما بين المؤمن والمؤمن، ينبغي أن يكونا على مثل هذا الأمر.

المؤمن مرآة أخيه، فما من فرد إلا وفيه عيوب وقصور، وكثيراً ما يغفل عنها الإنسان ولا ينتبه لها، ولذا فهو أحوج ما يكون إلى من يبصّره ويعينه على إصلاح نفسه والتخلص من عيوبها، ولا يقدر على ذلك إلا أخٌ محبٌّ مخلصٌ دائم الصلة رقيق المعاملة، حكيم في نصحه وتبصيره، وهذا خير عون وزاد على الطريق.

وقد كان أمير المؤمنين الفاروق عمر رضي الله عنه يقول: (رحم الله امرءاً أهدى إلينا عيوبنا). وفي هذا التوجيه العُمَري إشارة

لطيفة، في كون العيوب -عند من يبحثون عن السمو -تشبه الهدايا، فالذي يقدم النصيحة لا بد أن تكون طريقته في إصلاح العيوب طريقة من يقدم الهدية، تلك الطريقة التي يكتنفها اللطف والليـن، وجمال الأداء وحسنه، ولا بد لمن تقدم له النصيحة أن يستقبلها استقبال من أهدي له شيء ثمين، تستشرف نفسه لأخذه، وشاكرا لمن أهداه إياه.

المنهجية القارئة للمرايا

شكى الرجل لجلسائه أن شجرته تثمر ثماراً (مُرّة)، فقال له أحدهم: غيّر تربتها، فعمل الرجل بنصيحة صاحبه، وبعد مدة قطف الثمرة وإذا بها مُرّة، فعاود الشكوى لأصحابه، فنصحوه بتغيير الماء الذي يسقيها به، ففعل، وانتظر ثمار شجرته، فجاءت مُرّة أيضاً، وهكذا واصل شكواه وواصل أصحابه تقديم نصائحهم له، ولكن دون جدوى، كانت ثمار هذه الشجرة مُرّة في كل مرة. أتدرون لماذا؟

لقد سأله أصحابه في نهاية المطاف عن نوع الشجرة التي يمتلكها، فكانت الإجابة صادمة بالنسبة لهم، لقد كانت الشجرة التي حاول الرجل تغيير كل ما حولها لتكون ثمرتها غير مُرّة هي شجرة (الحنظل)، فهل من الممكن أن نجني من الحنظل يوماً ثماراً حلوة !؟

إن فساد الباطن لا يمكن أن تصلحه أي تحسينات للفروع الخارجية وإن كثرت، لأن أصل الداء في الداخل، وتحسين الداخل (الباطن) هو الأصل الذي يجب أن يُبدأ به قبل أي تحسينات خارجية، لأن فساد الأصل لا يصلحه تحسين الفروع.

إذا ما الجُرحُ رُمّ على فسادٍ ... تبيّن فيه تفريط الطبيب

كنت قد عقدت العزم على البدء بالحديث عن مرايا الذات، للبحث من خلالها عن الحقيقة، ولكني تأملت مليا فوجدت أنه من الضروري أن نبدأ بالحديث عن إصلاح المنهجية التي نقرأ بها ومن خلالها مرايا الذات المتعددة، وإلا صارت قراءتنا لذواتنا مشوّهة، بل ربما حولنا قراءتنا لهذه المرايا وفق منهجية قاصرة أو ناقصة إلى خداع للذات، فنسيء من حيث نظن أننا نحسن. وحين يخفت صوت المنهج، أو تشوه صورته فإن البديل جاهز، وهو المقاييس الذاتية المبنية على عبادة الناس لأنفسهم، أو لبعضهم بعضا.

وقد يتساءل البعض ما فائدة المنهج العلمي إذن؟ نقول: فائدته أولا: أنه وإن كان لا يعصم من الأخطاء إلا أنه يقللها، وفائدته ثانيا: أنه يمكِّن المختلفين من التحاور والرجوع إلى الحق، لأنه يضع ضوابط يتطلب أخذها في الاعتبار، ويمنع من تحكيم المقاييس المتحيزة.

إن العقلية المنهجية، كما يقول (د. عبد الكريم بكار، هي هكذا، ج١، ١٢) «تحوّل المعلومات والمعطيات والظواهر والإشارات المشتتة والمبعثرة إلى أصول ونماذج عبر التحليل المنطقي، وإلى إدراك الروابط الدقيقة التي تربط بينها». وبهذه العقلية يمكننا أن

نستفيد من جميع المرايا القريبة منا والبعيدة، ونصنع من خلالها ذواتا واعية، لا تبطر فترفع ذاتها فوق قدرها، وتأخذ حق غيرها بغير وجه حق، وليست بالمقابل ذاتا مستضعفة تنزِل ذاتها دون حقها، ويؤخذ منها حقها دون أن يكون لها أي موقف.

وتعليم المنهج الصحيح يعني علاج أصل الداء لا أعراضه؛ فغياب المنهج هو أصل الداء، والأفكار الخاطئة عن الذات ومراياها المتعددة مظاهر هذا الداء، ومجرد أفكار صحيحة مقابل أفكار خاطئة، دون منهج ضابط وحاكم، يشبه تخفيف أو علاج أعراض المرض لا أصل المرض، وإذا استمر الميكروب بالجسم فسيظل يفرز آثاره حتى يتم استئصال الميكروب، والمنهج هنا هو الذي يستأصل الميكروب، ويحمي العقل من إفرازاته الضارة، ويعطيه المناعة من تسلل ميكروبات أخرى كالخرافة والأساطير والتحيز والأنانية والنرجسية وغيرها من الميكروبات سريعة الانتشار وواسعة المفعول .

ولهذا يمكن القول إن شهادة الدكتوراه لا تعني أن حاملها يمتاز عن غيره بالذكاء أو الفطنة أو النباهة، فضلا عن النبوغ أو العبقرية، كل ما تعنيه الشهادة أن الحاصل عليها يتمتع بقدر من الجَلَد والمثابرة، وبإلمام جيد بمبادئ البحث العلمي. كما يصف

ذلك (د. غازي القصيبي، حياة في الإدارة،٦٣)، وهو محق في هذا الوصف.

والبحث العلمي لن يقدم حلولا خارقة، إنه يقدم معرفة منظمة أكثر، ولكن لا يمكنه أن يقدم حلولا فورية للمشكلات الأكثر عمقا. البحث الجيد يقدم معلومات، وتحليلات أفضل، ولكنها دائما غير كاملة. إنه يقدم عنصرا صغيرا ولكن لا يمكن إهماله. إنه يساعد على تحديد مدى الاختيارات، لكنه لا يصنع هذه الاختيارات.

والبحث العلمي -أيضا-هو بحث يخضع لقواعد معينة، وليس بحثا علميا متخبطا، ومع اعترافنا بأن هذه القواعد قابلة للتغير باستمرار، فإن مبدأ الخضوع لقواعد منهجية هي صفة أساسية غير المعرفة العلمية. وكل من مارس تجربة البحث العلمي على حقيقتها يعلم أن كلمة صدق يقولها عالم عن آخر، ممتدحا فيها بحث زميله، قد تكون أحب لديه من أموال الدنيا. وهكذا يتحمس العالم للشهرة بمعنى اعتراف المتخصصين والعارفين بقيمة علمه وعمله، أما الشهرة الجماهيرية السطحية فلا تهمه في شيء، لأنه على أية حال لن يستطيع، مهما فعل، أن يجارى مطربا عاطفيا أو لاعبا رشيقا في اكتساب الشهرة بين عامة الناس، كما يشير إلى ذلك بنوع من الأسف. (د. فؤاد زكريا، التفكير العلمي،٢٢١).

وفي إشارة ذكية ودقيقة من قبل (د. زكي نجيب محمود، بذور وجذور، ٢٤٦) يؤكد فيها ضرورة توسيع مجال البحث العلمي ليصبح شاملا لحياة الإنسان، وطبعا يتطبع به، فيقول: «والمعول عليه في المنهج العلمي، هو أن يتطبع به صاحبه في مجالات الحياة على اختلافها فتكون لديه عادة أن يربط المسببات بأسبابها الحقيقية، كلما أراد تعليلا مقبولا لها».

إن البحث العلمي ينمو ويقوي في ظل الحرية، كما يؤكد على ذلك (د. يزيد السورطي، السلطوية في التربية العربية، ص١٨٧)، ويضعف ويضمر في مناخ الكبت، ومفهومه يفترض أن المعرفة تأتي من مصادر عدة وأنها مفتوحة النهاية بل ومجهولة النهاية أيضا، والاعتماد المتطرف على الكتاب المدرسي يوحي بأن كل ما يحتاج إليه المتعلم من المعرفة قد سجل في كتاب واحد، وأنه لا يتغير، وأنه صحيح ونهائي. وهو هنا يشير إلى طبيعة المناهج التعليمية وما توحيه من خلال أبجدياتها، وما قد يغرسه الأستاذ من تأصيل لفكرة أن (كل الصيد في جوف الفراء)، وأن المنهج المدرسي قد استوعب كل ما يمكن للطالب أن يحصله في مسيرته العلمية، مع الأخذ في الاعتبار أن المنهج هو الآلية التي يمكن للطالب من خلالها أن يتجاوز أستاذه.

وتكوين وبناء (الشخصية العلمية)، أي بعث الروح العلمية وتأسيس العقلية المنهجية، يكسب الإنسان شخصية علمية، يستطيع من خلالها أن يقف موقفا راشدا من التغييرات والتجديدات الحضارية، فيقبل ما يقبله عن بصيرة، ويرفض ما يرفضه عن هدى ووعي. (د. عبد الكريم بكار، حول التربية والتعليم، ص٩٠). كما أن بناء العقلية المنهجية الممتازة سيمكننا من أن نتعامل مع ما نعرف على نحو جيد، كما يمكننا من أن نأخذ بعين الاعتبار ما لا نعرف، فنراعيه في أحكامنا وقراراتنا وحواراتنا. (د. عبد الكريم بكار، هي هكذا، ج١، ص١٨٦).

والاقتباسان السابقان في تكوين الشخصية والعقلية العلمية وبنائهما يشيران إلى ما يمكن أن تمثله المنهجية من صقل لمرايا الذات من الأهمية بمكان، حتى تتمكن هذه الذات من الرؤية السليمة، التي سينبني عليها الحكم الصحيح والقرار الصائب.

وفي واحدة من لفتاته الرائعة، يلفت نظرنا أستاذنا أ.د سعيد إسماعيل علي إلى الاستفادة من منهجين مختلفين في عالمي (النمل والنحل)، فيشير إلى أن المنهج «النملي» في التفكير، يعيد إنتاج ما جُمع بالقراءة، والمنهج «النحْلي» يُبدع، ولا يقف عندما جُمع بالقراءة. وكأنه بإشارته تلك يوجهنا إلى تحويل

ما نجمع بشكل منهجي وإبداعي إلى (عسل مصفى فيه شفاء للناس)، وعدم الركون إلى مجرد التخزين والتكديس فقط كما هو الحال في عالم النمل.

إن المنهج هو العنصر الثابت في كل معرفة علمية، أما مضمون هذه المعرفة والنتائج التي تصل إليها ففي تغير مستمر. والمنهج وفق رؤية (مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص١٧٠) يختصر المراحل، والتجربة ترينا أي هذه المراحل لا لزوم لها. والمنهج بصورة مختصرة هو «فن التنظيم الصحيح لسلسلة من الأفكار العديدة، إما من أجل الكشف عن الحقيقة حين نكون جاهلين بها، أو من أجل البرهنة عليها للآخرين حين نكون بها عارفين». (د. عبد الكريم بكار، فصول في التفكير الموضوعي، ص ١٧٠).

والعقل البشري، يستطيع أن يجمع بين أقصى درجات المنهجية وأقصى درجات الخرافة، والبنى العميقة لمعظم الثقافات هي بنى خرافية. (د. عبد الكريم بكار، حول التربية والتعليم، ص٩٧). ومشكلة تقديس الأشخاص تنبع أساسا لدى الأمم والشعوب من غياب المنهج أو غموضه أو تعقيده.

والفهم هو الخطوة الأساس لأي عمل بشري، وهو أحد أهداف البحث العلمي المتعارف عليها بين أهل هذا المجال، إضافة إلى التفسير والتنبؤ والتحكم، ولا يمكن تطبيق أي إجراء في أي مجال على الطريقة الصحيحة، إلا مع الفهم، إذ الحقيقة تهزم الخرافة، والفهم السليم يهزم الفهم السقيم، والسُنّة تهزم البدعة، والعدل يهزم الظلم، وهكذا مع بقية القيم، إذا وجد الإخلاص والصواب.

بل، إن الخطأ عند بعض الفلاسفة يساوي عدم الفهم، كما يؤكد على ذلك د. محمد باباعمي، وأن الفهم (وفق هذا التصور) يعادل الصواب، فمن فهم أجاد وأحسن، ومن لم يفهم أتى بالأراذل من الأمور وأساء أيّما إساءة.

وكم من عائب قولا سديدا وآفته من الفهم السقيم

والمنهجية العلمية من أعقد الأمور إذا اقترنت بالفهم السقيم، وهي من أبسطها وأيسرها إذا صاحبها الفهم السليم، والفهم السليم وفق منهجية علمية سديدة، رزق يسوقه الله للإنسان، فيحميه من زلل فهمه واجتهاده، لأن غياب توفيق الله وعونه للإنسان يكون مصيره الزلل، وإن ظن صاحبه غير ذلك، وقد صدق الشاعر حين قال:

إذا لم يكن عون من الله للفتى فأول ما يجني عليه اجتهاده

يقول ديكارت في كتابه (المقال على المنهج): إن العقل هو أحسن الأشياء توزعا بين الناس بالتساوي، إذ يعتقد كل فرد أنه أوتي منه الكفاية، حتى الذين لا يسهل عليهم أن يقنعوا بحظهم من شيء غيره، إلا أنه ليس من عادتهم الرغبة في الزيادة لما لديهم منه (أي العقل)، وليس براجح أن يخطئ الجميع في ذلك، بل الراجح أن يشهد هذا بأن قوة الإصابة في الحكم، وتمييز الحق من الباطل، وهي في الحقيقة التي تسمى (بالعقل أو المنطق)، تتساوى بين كل الناس بالفطرة، وكذلك يشهد بأن اختلاف آرائنا لا ينشأ من أن البعض أعقل من البعض الآخر، وإنما ينشأ من أننا نوجه أفكارنا في طرق مختلفة، ولا ينظر كل منا في نفس ما ينظر فيه الآخر، لأنه (لا يكفي أن يكون للمرء عقل، بل الأهم هو أن يحسن استخدامه).

والعلم مع وجود الفهم والوعي، وفق تعبير المفكر الإسلامي أ.د فؤاد البنا، يصنع للفرد المرآة التي يرى بها جهله، والدواء الذي يقيه من التضخم وتورم الذات، ليظل صغيرًا متواضعًا، فيُكْبِره الناس ويَعظُم عند الله. إنه (أي العلم) زاد الحياء وإكسير الحياة، وهو حصن من الكبْر، وترياق الخلاص من العبودية لغير الله، وهو الآلة التي تُري صاحبها الأشياء كما هي دون تصغير أو

تكبير ومن غير تهويل أو تهوين، ولا شك أن ذلك كله يؤدي إلى سداد الرؤية ورشد الفكرة، وصواب الموقف والقرار، ومن هنا تتبارك العبادات المبنية على علم.

والعلم طوق النجاة من رياح التنطع وأعاصير التفريط، وهو حبل النجاة الذي يعصم من السقوط في مهاوي البطالة وأخاديد العطالة، وهو جسر العبور إلى شاطئ الوسطية وبر الاعتدال دون جنوح نحو مناكب "الجحود" أو تحطم على صخرات "الجمود". إنه (أي العلم) يمنح حامله كمال العقل، لأنه يَعْقِل أهواء الذات وغرائز النفس الأمارة بالسوء، ويلفت أنظاره إلى العداوة المتخفية تحت إهاب النفس الأمارة بالسوء، ويساعده على ترويض هذه النفس الجموح حتى يصل إلى التلذذ بقهر هواه ويتذوق لذة الطاعة وحلاوة الإيمان.

ثم أليست ممارسة الفكر ضربا من الانشغال بالذات والاشتغال عليها وممارستها؟ والتفكر هو رحلة مع الذات لمعرفة أسباب هذا الواقع المرير الذي يجثم بظلاله على حاضرنا، ويشوه تصوراتنا عن ذواتنا وعن الآخرين من حولنا، ويشل حركتنا في فضاء الحاضر والمستقبل. كما أن تقليد الرجال دون فهم ووعي مدعاةٌ للزلل، وتقليد الذات بالإصرار على قولٍ أو موقفٍ لمجرد أنه قد

قالـه أو عُـرِف بـه أسـوأ، وتقليـد المجتمـع أكثـر خطـورة، إذا اقتصـر علـى المسـايرة فـي الصحيـح والخطـأ والحسـن والقبيـح، دون اتخـاذ موقـف المغايـرة فـي حـال وجـود الخطـأ والقبيـح. إن مـن البـلاء ـ كمـا يقـال ـ قلـة العلـم وسـوء الفهـم.

أقول له: عمراً فيسمعه سعدا ويكتبه حمدا وينطقه زيدا

وسـيظل نقـد الـذات مقياسـا دقيقـا للوعـي بالـذات، وللوعـي بالماضـي والحاضـر، والأمـة التـي تحـرم منـه تحـرم مـن خيـر كثيـر. كمـا أن عمليـات المراجعـة، والاعتـراف بالخطـأ، لا ينتقـص مـن الـذات، وإنمـا يـؤدي إلـى تزكيتهـا، ويحـول دون تدسـيتها. ونقـد الـذات قـد يكـون منهجيـة ضروريـة لتشـخيص جـذور الأزمـة، ثـم محاولـة تجاوزهـا.

والأمانـة فـي نقـد الـذات، ومواجهـة القصـور فـي تكوينهـا وأدائهـا، أمـرا ليـس باليسـير، بـل هـو أمـر مؤلـم مُـرّ، ولكـن ليـس لنـا منـه مفـر، ولا بـد لنـا مـن النصـح لأنفسـنا، إلـى القـدر الـذي يجعلنـا قادريـن علـى معرفـة الحقيقـة، والتغلـب علـى انفعـالات عواطفنـا، وأوهـام دعـاوى قدراتنـا وإنجازاتنـا، وكبـر نفوسـنا ومغريـات عجزنـا، حتـى نسـتطيع أن نفيـد مـن تـراث ماضينـا ودروسـه لخيـر مسـتقبلنا. (د. عبـد الحميـد أبـو سـليمان، أزمـة العقـل المسـلم، ١٧٤).

ومن ثمار النقد الذاتي، الذي جعله (أ. د. فؤاد البنا، خصائص الشخصية التي تصنع الحضارة رؤية قرآنية، ٢٥) واحدا من خصائص الشخصية التي تصنع الحضارة، أنه «يساعد المرء على معرفة قدر ذاته كما هي بدون تعظيم أو تحقير، مما يساعد المرء على أن يُنمّي نقاط قوته ويوظفها لصالح مشروعه النهضوي، ويمنعه ذلك من الإصابة بالضآلة وعقدة النقص، وفي ذات الوقت فإنه بمعرفته لنقاط ضعفه يتواضع ويتجنّب الوقوع في مهاوي الغرور، وفي ذات الوقت فإنه يمارس رقابة صارمة على نقاط ضعفه فيقويها ويحذر أن يأتيه عدوه من قِبلها». وهنا يتم العودة بالسؤال إلى منطقة (تحصين الذات) من الشيطان، لا محاولة (منع الشيطان) من أن يقوم بعمله لو صح التشبيه.

«وفي كل الأحوال فإن استصحاب مشاعر المسؤولية يجعل المرء إيجابيًا ويرتقي بفاعليته إلى حد كبير، وإن ممارسة النقد الذاتي يؤدي إلى سدّ الثقوب وتغطية الثغرات سواء في الذات أو في مشاريعها وأنشطتها، ويؤدي إلى إصلاح مواضع الخلل وتقويم الاعوجاجات، ويؤدي إلى استكمال النواقص وبلوغ الكمالات، ويتسبّب في تجويد العمل وتحسين الأداء، ويصل بالفاعلية الذاتية والعامة إلى ذرى الكمال البشري الممكن». وإذا أدركت الذات (قصورها)،

صعدت إلى (قصورها).

و في إحدى إشاراته العميقة يوضح المفكر الجزائري (مالك بن نبي، الصراع الفكري في البلاد المستعمَرة، ٦٢)، أن الاستعمار يعلم أن القارئ المسلم عامة بسبب تخلف بلاده، لا يمتلك المقدرة الكافية في نقد الأشياء (ومن ذلك نقده لذاته)، حتى إنه لا يؤسس أحكامه على الأفكار، في جوهرها وطبيعتها مباشرة، ولكن على صورتها في مرآة معينة، أي بعبارة أخرى، على الصورة التي يريد الاستعمار إبرازها فيها، فهو يحكم عليها طبقاً لانعكاسها على (بصره)، لا وفقاً (لبصيرته)؛ وبمقتضى الضوء النفسي الذي يسلط عليها من الخارج لا بمقتضى ما في جوهرها من برهان.

وبناء على إشارة مالك بن نبي، فإن وضعنا وواقعنا وحالة التبعية التي نعيشها، تجعلنا لا ندرك قيمة الأفكار حتى تعكسها لنا مرآة الغرب، وليس من مصلحة الغرب -بالتأكيد-أن يعكس لنا الأفكار التي يريد تحطيمها.

وتنبع أهمية النقد الذاتي (أو ما يمكن أن نطلق عليه في التصور الإسلامي التوبة النصوح) من خلال:

أولا: أنها جزء لا يتجزأ من العمل الكامل (أو الذي يسعى للكمال)

الصحيح .

وهي ثانيا: جو الخصوبة والنمو من خلال الزوجية.

وهي ثالثا: التفات إلى العامل الداخلي الذي منه تحسم الأمور.

وهي في الأخير: أداة ربط النتيجة بالسبب للتخلص من القول بأن الأسباب غير مرتبطة بالنتائج.

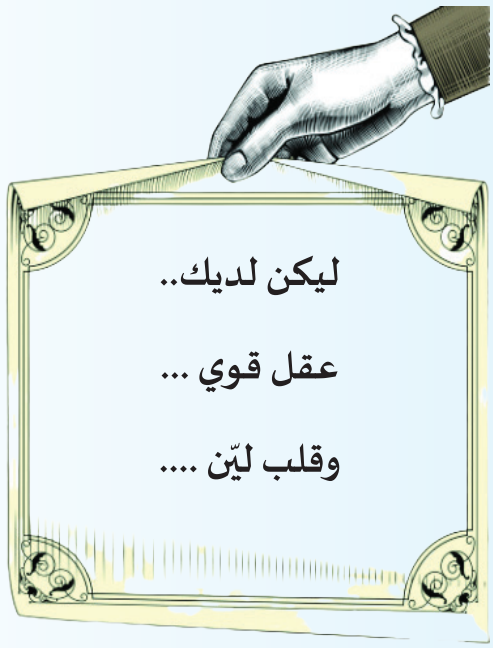

المرايا الذاتية بين عقدتي النقص والاستعلاء

هناك مقولتان تعدان موضوعاً مشتركاً بين اليونانيين القدماء والبابليين والسومريين، الأولى: "اعرف نفسك" والثانية: "كن معتدلاً في كل شيء». حيث تشير هاتان المقولتان إلى مدى أهمية ومكانة تربية الشخصية في جميع الثقافات، فالمقولتان لافتتان للنظر إلى حدٍ بعيد، خاصة من ناحية التأكيد على أهمية الوسطية والتوازن، كما أن هناك نقطة أخرى مشتركة بين الثقافات في تربية الشخصية وهي أن يعرف الإنسان عيوبه، وأن يتأمل ملياً في كيانه وذاته حتى يستطيع رؤية عالمه الداخلي وصفاء روحه وجوهره.

إن معرفة الذات خصلة ضرورية ليس فقط من أجل الحصول على شخصية قوية، بل من أجل معرفة خالق هذه الذات ومربيها. وكم أحسن القائل عندما قال: «اعرف نفسك، وليكن مرادك معرفة الله، ومَن عرف نفسه، فقد عرف الله».

والإنسان السوي الذي أدرك ذاته على حقيقتها، شخص يستطيع العيش في القصر ويمكنه أن ينام على الحصير، ويخاطب خريج الجامعة كما يخاطب الأمي، ويحرص على مراعاة شعور أقل الناس شأنا، كما يراعي مشاعر الأغنياء وأصحاب السلطة، فهو أينما حلّ نفع، ويتحرك في العالم مكتملا، يحصل معارف ولا يغير جواهر، وإذا

تغيرت أفكاره لا يتغير معدنه.

ومفهوم (الذات) يعدُّ جانباً من أهم جوانب الشخصية؛ ويقصد بمفهوم (الذات) الفكرة التي يحملها الفرد عن نفسه، وقد تحمل تقديراً إيجابياً أو سلبياً؛ ويتدرج الناس في تقديرهم لذواتهم بين السلبية الشديدة والإيجابية الشديدة، وهذا ما سنزيده وضوحا في الوقفات القادمة إن شاء الله، عندما نتحدث عن عقدتي النقص والاستعلاء.

والبشر نوعان: الأول يريد أن (يفعل) شيئا ما، والثاني يريد أن (يكون) شيئا ما. الصنف الأول يتميزون بأنهم ناكرون لذواتهم، ونواياهم حسنة، ويتسمون بالإخلاص، أما الصنف الثاني فبالإضافة إلى قلقهم الدائم على مستقبلهم فإنهم يتصفون بالانتهازية وحب الذات والقفز على الحواجز.

إن معرفة الإنسان بذاته لا تكتمل أبدا، حسب وصف (د. عبد الكريم بكار، تأسيس عقلية الطفل، ٧٨)، فهناك دائما شيء غامض أو مشكوك فيه، وهذا هو السر في أن رؤيتنا لأنفسنا تظل قابلة للتعديل. والصورة التي نكوّنها عن أنفسنا قد تكون أهم بكثير من حقيقة أنفسنا، فالعظماء والمبدعون والسباقون من الناس، هم في الأصل أشخاص لا يملكون (صورا نهائية) لأنفسهم، ولا يمكن أن يحاولوا ذلك، وشعارهم الدائم: (إن ما هو أفضل لم يولد بعد).

الإنسان (ذات) لها وجود متفرد، (خريطة) من المفاهيم والمشاعر والأحاسيس التي قد لا يعرفها أحد سواه، لذا قد يصدمنا تصرف البعض بعد أعوام من التعارف، فقد كانت لهم ذات لا نعرفها عنهم ـ وكشفت عن حالها الآن ـ متخفية وراء حجاب المظهر والمجاملة، لكن الأيام تكشف وجوها أخرى لم يكن أحد يحسب لها حسابا ... تكشف طبيعتها المواقف والأزمات.

وبوسعنا أن نتخيل ما كان يمكن أن يحدث -في مجتمع مريض - لو أن خليفة من طراز عمر بن الخطاب ﷺ أراد أن يعزل رجلاً وقائدا عظيما كخالد بن الوليد ﷺ من قيادة جيش الشام!! إن محاولة كهذه كانت كفيلة بزلزلة العالم الإسلامي لو أنها حدثت بعد ذلك بقرنين أو ثلاثة قرون فحسب، كما أشار إلى ذلك المفكر الجزائري مالك بن نبي. ولكن (الأنا) الإسلامية كانت في العهد الأول سليمة سوية، فكان (فعل) عمر بن الخطاب دون عقدة، وكان (رد فعل) خالد بن الوليد دون عقدة أيضاً. لأن علاقاتهما كانت علاقات سوية منزهة.

هكذا كان الحال عندما كانت (الذوات) تنظر إلى نفسها وغيرها نظرات سوية من خلال (مرايا مستوية صافية) لا يعلو سطحها أي تشوه أو تشقق أو غبار يحمل بذور الدونية أو الاستعلاء، وإنما كانت الصور تنطبع على سطحها واضحة جلية دون تكبير أو تصغير،

فعرفت هذه الذوات قدر نفسها وقدر غيرها وأعطت كل ذات حقها دون إفراط أو تفريط، ونجت بذلك من عقدتي النقص والاستعلاء.

وبالمقابل دعني -أخي القارئ- أضع بين يديك نموذجين من عصرنا الحاضر، لشخصيتين أكاديميتين علميتين، إحداهما عاشت التجربة بنفسها، والثانية كانت شاهدة عليها، لترى الفارق الكبير بين ذوات تربّت على يد النبوة وشربت من معينها الصافي، وذوات ربتها يد الأجنبي، وتشربت ثقافته، وترسخ في ذهنها تفوقه واستعلاءه، في مقابل تخلفها ودونيتها (عقدة الخواجة).

ولنبدأ بالتجربة التي عاشها صاحبها، ورواها في إحدى كتبه، وصاحبها هنا هو د. ماجد عرسان الكيلاني (أردني)، عندما أراد أن يزور بلدا عربيا برفقة زوجته، وكان جواز سفره عربيا (لأنه رفض الجواز الأمريكي عندما أعطي له وهو في أمريكا) وجواز سفر زوجته أمريكيا، وعندما وصلا إلى المطار، تم منح زوجته تأشيرة دخول مفتوحة، ولم يتم منحه تأشيرة دخول، وبقي في ورطة، وحاول مع جوازات المطار ولكن دون جدوى، وبعد اتصالات وتعهدات تم منحه تأشيرة دخول مؤقتة لمدة ٧٢ ساعة فقط، وبالفعل لم يمكثا في هذه الدولة إلا أقل من ٧٢ ساعة وغادرا، وقرر بعد ذلك قبول الجواز الأمريكي لا حبا فيه، ولكنه إرغاما لمن يعيشون (عقدة النقص) في البلدان العربية من الأنظمة ومن

يدور حولها.

والتجربة الثانية كان شاهدا عليها د. محمود حمدي زقزوق (مصري)، والذي كان متعاقدا للتدريس بإحدى الدول الخليجية، وحدث أن تعاقدت هذه الدولة مع أحد الأساتذة الأمريكيين للتدريس في جامعاتها. وقد كان لدى هذا البلد الخليجي حينذاك جدول غريب للمرتبات لأعضاء هيئة التدريس في الجامعة، في قمته الأوروبيون والأمريكيون وفي أوسطه الآسيويون من الهند وباكستان وفي أسفله العرب. وعندما حضر الأستاذ الأمريكي تبين أنه يتحدث العربية بطلاقة، وأنه أصلاً عربي، تجنّس بالجنسية الأمريكية، وعندئذ أصر هذا البلد الخليجي على وضع هذا الأستاذ ـ لأنه أصلاً عربي ـ في أسفل جدول المرتبات مع الأساتذة العرب، ولكن الأستاذ رفض ذلك، ولجأ إلى السفارة الأمريكية لتحميه من الظلم العربي، واستطاعت السفارة أن ترغم هذا البلد العربي على دفع التعويض الذي ينص عليه العقد لهذا الأستاذ الذي عاد إلى بلاده الجديدة التي تقدر كفاءته.

هذه التشوهات والتشققات التي لاحظناها من خلال النموذجين السابقين -وهناك نماذج كثيرة شبيهة بها -تشير إلى ذوات تحمل صفتي (النقص والاستعلاء) في آن واحد، فهي تعيش عقدة (النقص) مع الأجنبي، كما تعيش بالمقابل عقدة (الاستعلاء) مع بني قومها

ودينها، مخالفة بذلك التوجيهات القرآنية التي توجهها إلى عكس ذلك،﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الكَافِرِينَ ﴾ [المائدة: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾[الفتح: ٢٩] ، وهذه الصفات المتناقضة الجامعة بين عقدتي النقص والاستعلاء كانت واحدة من الصفات التي تمثلت في بني إسرائيل، فقد ضربت عليهم ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآَيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾[البقرة: ٦١]، ومع هذا نجد عقدة (الاستعلاء) مسيطرة عليهم، قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ اليَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ﴾ [المائدة:١٨]، وقال تعالى: ، ﴿وَمِنْ أَهْلِ الكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران:٧٥] ، (شعب الله المختار).

لقد التقت في بني إسرائيل رذائل الصلف والقسوة والغرور، وهي رذائل قد (يخفيها الضعف فتكون حقدا دفينا)، وقد (يبديها الثراء والغلبة فتكون عدوانا مبينا)، وهذا حال من يعيش حيرة التناقض، والتي أحد طرفيها عقدة النقص بينما طرفها الآخر عقدة الاستعلاء.

ومن جهلت نفسه قدره رأى غيره منه ما لا يرى

هذا البيت الشعري للمتنبي (مالئ الدنيا وشاغل الناس)، والذي

له من القصائد (٢٨٦) قصيدة، وعدد أبيات ديوانه الشعري (٥٣٤٠) بيتا، والذي سنقف اليوم معه وقفة مطولة كإحدى مرايا الذات، وسنستشهد بعدد من المقتطفات من مقال للأستاذ/ المنصف المرزوقي (رئيس تونس السابق)، في مقال قديم له تحدث فيه عن المتنبي، وسنحاول بلورة هذه المقتطفات ونعلق عليها بما يخدم الموضوع الذي نحن بصدده.

وقبل أن نشرع في الحديث عن المتنبي يحسن بنا أن نتعرف على العلاقة الصحية مع الذات، والتي تتمثل في ثلاثة أبعاد هي: (فهم الذات)، (وتقبل الذات)، (وتطوير الذات). والغفلة عن هذه الأبعاد في بناء الذات، وعدم إكسابها المناعة الثقافية والحضارية، هي التي تستدعي السقوط، وتستدعي الآخرين ليأخذوا نصيبهم من تداعيات سقوطنا، وهذا ما يشير إليه بيت المتنبي الذي صدرنا به هذه المقالة.

وما نطرحه من تحليل لشخصية المتنبي لا يعني التقليل من قدره ومكانته الشعرية، أو أن غيره لم يقعوا في مثل ما وقع فيه، وإنما نستهدف من خلال ذلك التعرف على شخصيته التي رسمتها قصائده وأبياته، ومن ثم نبدي هذه الشخصية كمرآة يمكن أن ننظر من خلالها إلى ذوات مشابهة، نسمع أو نقرأ عنها أو نعايشها، وإن اختلف الزمان والمكان والشخص والموضوع.

وقد بدأ المرزوقي مقاله بقوله: «علّمني والدي باكرا أنه كما لا نبيّ يقارن بالرسول الأعظم ﷺ، فلا شاعر يقارن بالمتنبي، كنت أنا أيضا لسنوات لا أسافر إلا وفي حقيبتي ديوانه، خلبني منه -شأني في ذلك شأن كل (مريديه)- وقع الكلمات وسحر المعاني، إلا أن هذا الإعجاب تضاءل بتقدّمي في العمر وبتزايُد خبرتي بالذات البشرية؛ بل أعترف اليوم أنه تلاشى، وحتى إنه انقلب إلى شعور مركّب، فيه بعض الاستهجان والكثير من... الرثاء».

فمن يقلّب شعر المتنبي لا يعثر فيه إلا على موضوع واحد هو (المتنبي)، فهو لم يمدح إلا ذاته من بين كل مَن مدح، وهو لم يهجُ إلا من لم يعطه حق قدره، ولم يصف معركة إلا ليتحدث عن بطولاته، ولم يأت بحكمة إلا وكانت لتأكيد حكمته، ولم يرَ شاعرا قبله أو بعده، ولا حتى شخصا يضاهيه في عظمته، وهو القائل:

وما الدهر إلا من رواة قصائدي إذا قلت شعرا أصبح الدهر منشدا

فسار به من لا يسير مشمّرا وغنّى به من لا يُغنّي مغرّدا

ودعْ كل صوت غير صوتي فإنني أنا الصائح المحكي والآخر الصدى

نحن إذن أمام (ذات) تمركزت كالشمس وسط النظام الشمسي، وكل الذوات الأخرى أجرام تافهة تدور في فلكها... ذاتٌ انتفخت (كبالون) يريد احتلال الفضاء الذي حوله. إنه (تورّم الذات) في أقصى مراحله

حسب وصف الأستاذ المرزوقي، وإلا فكيف نفسّر هذين البيتين:

أمِطْ عنك تشبيهي بما وكأنّه فما أحَدُ فوقي، ولا أَحَدُ مثلي

ما نالَ أهلُ الجاهليّة كُلّهمْ شِعري، ولا سمعتْ بسحري بابلُ

لو عاش المتنبي ألف قرن لبقي يجري وراء هدفه مثل من يجري للوصول إلى الأفق.

إن كل ذات (متورّمة) مواجَهة بالفشل، وكلّ مَنْ يدور حول نفسه يضمحلّ ويذوب. وذلك لعاملين أساسيين أوردهما الأستاذ المرزوقي:

الأول: هو الفراغ الأصلي الذي تعاني منه الذات البشرية، فمهما كثر نصيبها من الصحة والجاه والجمال، أو قلّ نصيبها من تدافع الأفراد نحو الثروة والسلطة والاعتبار، فإن هذه الذات لا تشبع ولا تمتلئ، ﴿إِنَّ الإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ [المعارج:١٩] ، وقليلون هم من يكون غناهم في قلوبهم، أضف إلى هذا أن شهيتنا للعالم لا تفتر، فنحن نشتهي دوما ما عند الآخر، لا فرق بين من يشتهي سيارة أغلى من سيارة جاره، ومن لا يرضى بمملكة أقلّ من مملكة غريمه، أما القناعة فهي -خلافا للمثل الشهير-كنزٌ فَنِيَ منذ زمان بعيد عند الأغلبية الساحقة. كأنّ كل ذات تأتي العالم فكأنما تأتيه (بثقب أسود) من الفراغ، في وسطها بئر بلا قاع، ارمِ داخله كل ما تحصل عليه من مال وشهرة وتعظيم فلا يمتلئ أبدا، وتبقى الذات التي لا تشبع تصرخ: هل من مزيد؟

والعامل الثاني لفشل الذات المتورّمة أنها لا تتحرك في فضاء فارغ، وإنما قدَرها الاصطدام بكل الذوات المتوّرمة الأخرى، وذلك بفظاظة لا تزيد الطين إلا بِلة، ولا تزيد الجروح الأولى إلا تعفّنا. وهكذا اصطدمت الذات المتورّمة للمتنبي بالذات المتورّمة لقاطع طريق (يدعى - ويا لصدف الأسماء- «فاتكا» وإضافة لسخرية الأقدار «ابن أبي جهل»)، قتله وهو على الطريق بين واسط وبغداد ثأرا لكرامة ابن أخت له هجاه المتنبي، ويقال إنه سخر منه لما حاول الفرار فقال: أتفرّ وأنت القائل: الخيل والليل والبيداء تعرفني؟ وعادة ما ينتهي سعي الذات المتورمة إلى مثل هذه النهاية، وفي هذه النهايات قمة المهزلة وقمة المأساة، وقد شهدنا في زماننا الحاضر ما يشبه ذلك بل ما يفوقه أحيانًا.

وما لم ننتبه له نحن العرب هو أن شعر التفاخر والتعالي والشعراء مثل عمرو بن كلثوم والمتنبي والمعري وغيرهم، ظاهرة ثقافية نكاد نختص بها وحدنا من بين الأمم الكبرى، التي لن تجد في «ديوانها» شعر الفخر والهجاء والمدح إلا ما قلّ وندر. فشعر كالذي يقوله المتنبي وغيره لا مجال له في الثقافة اليابانية أو الصينية التي تستهجن وتمنع التكبّر، وتجعل من التواضع فضيلة الفضائل عند الكبار والصغار.

وفي الثقافة الغربية - التي جعلت من الفردانية دينها المخفيّ- يكاد

المشروع المجتمعي يُساوي كل الذوات، ومن ثَمّ أنجزت اختراعها العبقري (الديمقراطية)، في الوقت الذي ما زلنا نحن المسلمين نركض وراء المستبدّ العادل، ونتنافس لاكتساب وضع «الرجل الذي هو كألف»، ونتعالى على «الألف الذين هم كألفّ».

إن الذات عندما تصاب بمثل هذا العدوان (تنكمش) عند البعض هربا من المواجهة، و(تتورّم) عند البعض الآخر بحثا عن التعويض المنتِج للمستبدين والمتطرفين، ولا يعني هذا أن الأمم الأخرى تجهل التكبّر والسعي للتميّز والسيطرة، أو أننا نحن العرب لا نستهجن مثل هذه المواقف والتصرفات، ولكن تراثنا مشبَع حتى لا نقول مسمّم بظاهرة (تورّم الذات)، وهو ما زال يفعل فينا فعله، صدىً لإشكاليتنا الشخصية والجماعية الأولى، أي نقص الكرامة والتكريم، وامتهان الذات؛ وإلا كنا نسينا المتنبي أو تركناه لمجموعة من المتخصصين في الشعر القديم. ويعني ذلك أننا ما زلنا مجتمعات غير سوية، تنتج باستمرار كمًّا هائلا من الذوات المتورمة بفعل آليات جارحة مدمرة، اسمها العنصرية والطبقية والجهوية والعائلية والطائفية والاستبداد السياسي. أضف لكل هذا الاحتقار الخارجي لأمة لم تستطع فرض كرامتها على أمم تتصارع على الريادة كالأفراد.

ويصل المرزوقي في نهاية مقاله إلى بعض النتائج والتعميمات

المستقاة من بنية المقال، يمكن أن نوردها في النقاط التالية:

١-إن انتشار ثقافة التورم عندنا والتمسّك بها عبر العصور يعكس عدم وصولنا -بعد أكثر من أربعة عشر قرنا-إلى نقطة توازن تجعلنا أمة سوية مكونة من أشخاص أسوياء، فهكذا بقي رقّاص العُصاب العربي ينتقل من المتنبي إلى درويش ومن عمرو بن كلثوم إلى نزار قباني.

٢-إن «كمية» الانكماش والتورّم وجلد الذات مؤشّر على مدى فشل المجتمع في خلق الثقافة والسياسة والاقتصاد والتربية، التي تضمن وتتعهد وتطوّر أثمن ما يحتاجه الفرد والمجموعة، ألا وهي الكرامة.

٣-إنه كما يصاب الجسم بالعطب نتيجة تعرضه للجراثيم والفيروسات والتلوث، تصاب النفس بالعطب نتيجة إذلالها بالتمييز حسب الجنس والعرق والطبقة والانتماء الطائفي والعائلي... إلخ.

٤-إن الذات عندما تصاب بمثل هذا العدوان تنكمش عند البعض هربا من المواجهة، وتتورّم عند البعض الآخر بحثا عن التعويض المنتِج للمستبدين والمتطرفين، وإن فشلت تدخل في عملية تدمير لذاتها.

ويختم الأستاذ المرزوقي مقاله، وفي إشارة توحي بمحاولة جبر خاطر محبي ومريدي المتنبي بقوله: «إن لم تكن هذه المقولات حقائق في المطلق -وهو ما لا أدّعيه -فلتكن على الأقلّ فرضيات لتجديد النقاش حول أسباب ظاهرتَيْ: تورم الذات وجلدها، وهما

الظاهرتان اللتان تلعبان إلى اليوم دورا هائلا في كوننا ما زلنا ضحايا للتاريخ لا صنّاعا له».

إن هذه الحياة عجيبة غريبة، فمَنْ منّا لا يجعل ذاته في تصرّفاته وأقواله محورًا؟! إنّها موجودةٌ في كلّ بشريّ، لكنّنا نهذّبها تارةً، ونُغضي عنها تارةً، ونصبغها بالحياء تارةً، ونجمّلها بالدّين تارة أخرى لتكون مقبولة، ألم يفخر النّبي صلّى الله عليه وسلّم بهذه (الأنا)، حينَ ردّد في المعركة:

أنا النّبي لا كَذِبْ أنا ابْنُ عبد المُطّلِبْ

وهذه (الأنا) النبوية صادقة وواقعية، ولم تكن في موضع الفخر الزائف بل كانت في موضع التثبيت والربط على القلوب لتستقر وتثبت. بينما استمرت ذوات بعض الشعراء والحكام في (التضخم) الذي لا يستند إلى حقيقة، بل أحيانًا كانت ردة فعل (لعقدة نقص) متأصلة في هذا الشاعر أو ذاك الحاكم، وبقي أمثال هؤلاء طوال حياتهم فريسة عقدة نقص مخفيّة عوّضها -كما يفعل كل المرضى النفسيين- بعقدة تفوّق؛ والعقدتان -كما يقول علماء النفس- وجهان لنفس العملة الفاسدة، فكم من حكام أطلقوا على أنفسهم -ولازالوا يطلقون- ألقابا لا تليق إلا بصاحب الملك جل جلاله، من أمثال (صاحب الجلالة والفخامة والسمو، جلالة الملك المعظم، ...) ومثلهم الشعراء، الذين عاش كثير منهم (يهيم) في

ذاته ويعشقها ويضخمها، وليس المتنبي إلا نموذجا لشعراء آخرين منهم أبو العلاء المعري الذي قال:

وإني وإن كنت الأخير زمانه لآت بما لم تستطعه الأوائل

أو قوله:

تُعدّ ذنوبي عند قوم كثيرة

ولا ذنب لي إلا العُلا والفضائل

وقد سار ذكري في البلاد فمن لهم

بإخفاء شمس ضوؤها متكامل

فحين تكون حالتنا النفسية حسنة تسودنا الثقة بالنفس والاعتماد على الذات والتصرف من منطق راسخ بعيدا عن التذبذب والتردد، ولكن في حالة تردي الذات يتحول تقدير المرء لذاته إلى أنانية، وهي عملة من وجهين: الأول الشعور بالنقص، والثاني الشعور بالتعالي والكبرياء. (محمد العدلوني، إدارة الذات). والغرور هو أكبر العوائق أمام الوصول إلى الكمال الإنساني، ومن أعظم المهالك، في الحال والمآل. والكبر عامل نفسي شديد الشراسة، وعندما يستقر في النفس، فإنه لا يلغي عمل العقل وحسب، وإنما يلغي كل فضيلة في هذا الإنسان.

ويمكن تشبيه المغرور المتكبر (الطاووسي)، صاحب الذات المتضخمة، بشخص يعيش وحده في بيت من (المرايا) فلا يرى

فيها غير شخصه أينما ذهب يمنة أو يسرة، ويشبهه في وجه من الوجوه المتعصب الذي لا يرى ـ رغم كثرة الآراء ـ غير رأيه فهو مغلق على وجهة نظره وحدها، ولا يفتح عقله لوجهة نظر سواها، «يزعم أنه الأذكى عقلا، والأوسع علما، والأقوى دليلا، وإن لم يكن لديه عقل يبدع، ولا علم يشبع، ولا دليل يقنع»، حسب وصف د. يوسف القرضاوي.

وقد أخبرنا القرآن بأن هناك ذوات عرّفت نفسه بطريقة مغرورة منتفخة أنانية، فجاءت (أنا) الإبليسية، ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [ص:٧٦] ، و(أنا) و(لي) الفرعونية، قال تعالى: ﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الزُّخرف:٥١]، و(أنا) النمرودية،قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ [البقرة:٢٥٨]، كما جاءت (عندي) القارونية، قال تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص:٧٨] (د. يحيى المرهبي، على بصيرة).

ودعوني أسوق لكم (ذاتا) لأحد عظماء الإسلام (شيخ الإسلام ابن تيمية) تظهر فيها الـ(أنا) في صورتها المشرقة وإيجابيتها المثمرة، فكثيرا ما كان يردد بنوع من التبتل والتواضع هذه الأبيات:

(أنا) الفقير إلى رب البريات

(أنا) المسيكين في مجموع حالاتي

(أنا) الظلوم لنفسي وهي ظالمتي

والخير إن يأتنا من عنـــــــــده ياتي

لا أستطيع لنفسى جلب منفعـــــة

ولا عن النفـــــــــس لي دفع المضراتِ

وليس (لي) دونه مولى يدبرني

ولا شفيـــــــــع إذا حاطت خطيئـــــــاتى

والفقر (لي) وصف ذات لازم أبـــــدا

كما الغـــــنى أبدا وصـــــــــف له ذاتي

وهذه الحال حال الخلق أجمـــــــعهم

وكلهـــــم عنـــــــده عبد له آتـــــي

قد نتحدث عن ذواتنا، ونحن لم نعرفها بعمق بعد، وقد نسعى إلى الإمساك بالمعنى الذي يعرفنا بها، لكنه يفلت منا، ونتغير وتتغير اللغة، ونحاول من جديد، ومع كل هذا يكفينا شرف المحاولة.

أنت -وأنا والجميع-مطالب بأن نعيد النظر مرة ثانية وثالثة لذواتنا، وأن نعيد تقييمها قبل فوات الأوان، وأن نحاسب أنفسنا قبل أن تحاسب. ضع المرآة أمامك ثم انظر إلى عينيك جيدا وجها لوجه، وتذكر مسارك وانتبه إلى مسيرك واستشرف مصيرك. واجه وجهك، وراجع مسيرتك.

إذا عرفت ذاتك حق المعرفة، فستعرف الآخرين، وتعرف ربك

الكريم أيضا (من عرف نفسه عرف ربه). إنه تعرُّفٌ على الذات يبدأ منك أنت، ثم ينعكس تعرفا من الله عليك، وتعريفًا بك، ومن أحبه الله وضع له الحب عند أهل السماء، والقبول عند أهل الأرض، كما في معنى حديث الصادق المصدوق صلوات ربي وسلامه عليه.

تقص لنا الأساطير أن غرابا رأى زميلا له من نوعه، فهاله ما وجد في وجه زميله المحترم من سواد كالح، فامتعض مما وجد في وجه زميله من سواد، ولو نظر هو إلى وجهه في المرآة لرأى أن وجهه لا يقل سوادا وقبحا عن وجه زميله. هذا المثال يعبر عن الذات التي ترى في غيرها ما لا تراه في نفسها، فتصدر حكمها على الآخر، وإن كان الحكم ينطبق عليها تماما، وهذا ما نجد وطأته في علاقتنا بالغرب (وأمريكا بوجه خاص)، كذات ترى القشة في أعيننا ولا ترى الجذع في عينها.

فعامة الأمريكان يعتقدون أنهم أصحاب رسالة عالمية، ورسالتهم هي رسالة الحرية، فهم لا يرون أنفسهم كأقوى الدول فقط، وإنما هم أخيرها، بل هم خير أمة عرفها التاريخ البشري، فهم بزعمهم أكثر الناس تدينا، وأشدهم استمساكا، بالأخلاق الفاضلة، ونظامهم السياسي كما يرون أحسن نظام، ودستورهم أحسن وثيقة

كتبت في التاريخ، ونظامهم الاقتصادي أنجح نظام، وقضاؤهم أعدل قضاء، ونظامهم التعليمي أرشد نظام، ونظامهم الصحي أرقى نظام، بل سجونهم أكثر السجون إنسانية. أمريكا، كما يصف نرجسيتها د. جعفر شيخ إدريس، هي بلد الأحرار وبلد الشجعان وبلد الفرص. وعليه فإن استبدادهم بالأمر، وتحكمهم بالقرار العالمي، وقيامهم بنشر ثقافتهم ونمط حياتهم عن طريق عولمة العالم على الطريقة الأمريكية، سيكون لخير البشرية، لأن الأمريكان كما قال أحد مفكريهم هم:« حداة البشرية في سيرها نحو الكمال».

إنها نرجسية فائقة التضخم، وإعجاب بالذات مبالغ فيه، نراه رأي العين على مستوى دولة وحضارة. ولنتذكّر بأن (نرسيس) -الذي اشتُقّت من اسمه كلمة «نرجسية»-هو بطل الأسطورة الإغريقية كما رواها الشاعر اللاتيني (Ovide)، وفيها أن هذا المسكين كان صيادا بالغ الجمال، صدّ كل المعجبين به رجالا ونساء، ولم يفهم سرّ إعجابهم الشديد به إلا وهو يكتشف صورته في صفحة بحيرة هادئة، فوقع في غرام نفسه وبقي مرابطا مكانه إلى أن مات، تملؤه الحسرة لاستحالة وصال حبيب هو مجرّد صورته في مرآة. وكم من عشاق لذواتهم (أفرادا وشعوبا وحضارات) وقعوا فيما وقع فيه هذا الصياد المسكين، ووصلوا إلى ما وصل إليه، وانتهوا إلى النهاية التي انتهى إليها.

ويمكننا أن نستعير من المتنبي بيته الشعري الذي يتحدث فيه عن محاولة بلوغ الكمال والتمام للإنسان، والذي يعتبر عدم السعي إليه عيب ونقص، حيث يقول:

ولم أر في عيوب الناس عيبا كنقص القادرين على التمام

وإذا كان الكمال غاية منشودة للجميع، فإن النقص والتقصير من طبائع البشر. فالناس مهما بلغوا من الكمال يظلوا ناقصين، أي يظل لديهم ما يضيفونه إلى ذواتهم. وكثرة حاجات الكائن الحي دليل واضح على اتساع مدارج الكمال التي يتدرج فيها. وينبع مبدأ التغيير لسلوكنا وعاداتنا من مسألة فكرية، هي أن الإنسان يظل ناقصا، والعلاقة بينه وبين الكمال عبارة عن محاولات مناهزة ومقاربة ليس أكثر، كما يشير إلى ذلك د. عبد الكريم بكار. والناس يريدون من غيرهم الكمال، ويتسامحون به مع أنفسهم. ويخيل إليّ أن موضع النقص في تربية الإنسان لنفسه، هو أنه يعد نفسه للصعود ولا يعد نفسه للهبوط. وليس غايتنا الرجل المثالي، حسب وصف المفكر علي عزت بيجوفيتش، وأقل من ذلك المجتمع، بل نرغب فقط بأناس ومجتمع عاديين، وليحمنا الله من بعض الكمال. «ومن لم يتفقد النقصان من نفسه فهو في نقصان»، كما قال الحسن بن علي رضي الله عنهما.

وفي مقابل الذات المتضخمة، نجد أنفسنا أمام الذات ضعيفة

الشخصية، وضعف الشخصية مرض ووباء يحرم الإنسان من أشياء كثيرة في الحياة هي من حقه، ويحرمه أيضا من اقتحام أبواب كثيرة وتجربة أشياء جديدة قد يتعلم منها ويبني خبراته ، وقد يحرمه حتى من التقدم لوظيفة جديدة خشية أن يتم رفضه. إنها باختصار «عقدة الكمال الزائف» التي تتحول مع الوقت الى ضعف في الشخصية وخوف من فعل أي شيء جديد.

وكثيرا ما قادت (عقدة النقص) عددا من المثقفين والمفكرين العرب إلى الدعوة إلى تبني النموذج الغربي في بلدانهم متناسين، كما يقول الدكتور فادي اسماعيل، أن النموذج الغربي بكل حيثياته غير قابل للتكرار، لأنه كان مشروطا بظروف تاريخية واجتماعية داخلية، وظروف خارجية تمثلت في الاستعمار، ومن المعروف أن تلك الشروط التكوينية للنموذج لا يمكن تكرارها في مجتمع آخر بنفس الطريقة، لاختلاف تلك الشروط بين هذا المجتمع وذاك، وبين هذه الحضارة وتلك.

وكثيرة هي تلك الشخصيات الانطوائية، التي تذم نفسها، وتستهين بقدراتها الذاتية، والواقع أن لديها من الطاقة، ما لو وجدت من يكتشفها كي يتأكد منها صاحبها أولاً، ثم يقوم بتطويرها ثانيا، لأعطت الشيء الكثير لدينها وأوطانها، ولتحولت إلى ذوات بانية، يتعدى خيرها من ذاتها إلى مجتمعها القريب، ومن ثم أوطانها

والإنسانية بأسرها.

إن وعينا بذاتنا سيظل ناقصا ونسبيا ما دمنا نحصل على كثير منه عن طريق الوعي بالآخرين، والذي هو ناقص ونسبي، كما أن وعينا بما لدى الآخرين سيظل نسبيا وناقصا ما دمنا ننطلق إلى بنائه من أفق وعينا بأنفسنا والذي هو نسبي وقاصر أيضا. وهذه المعادلة في فهم الذات عن طريق مرآة الآخر (القريب أو البعيد)، أو فهم الآخر من خلال مرآتنا الذاتية في حاجة ماسة إلى إعادة نظر مستمر، حتى لا تتحول هذه المرايا إلى عكس صور مزيفة ومشوّهة لنا من خلال مرآة الآخر، أو يتحول الآخر إلى صورة مزيفة ومشوهة بناء على انعكاس صورته في مرآتنا الذاتية، وعندها لن تكون لنا ذاتا حقيقية واقعية، وكذلك لن يكون للآخر ذاته الحقيقية الواقعية، لأن كلا الذاتين بنيت على قصور أخل بصورة كلا الذاتين.

ولأن التغيير يبدأ دوماً من الذات، فالذي نجح في تغيير نفسه يمكنه أن يغير كل شيء، والذي عجز عن تغيير ذاته يستحيل عليه أن يغير أي شيء، كما يؤكد على ذلك أ.د. فؤاد البنا، فإننا في تعرفنا على ذواتنا ومحاولة الارتقاء بها، مطالبون بأن نصقل المرآة الداخلية حتى نرى ذواتنا على حقيقتها، وهذا لن يتأتى بسهولة، بل يحتاج إلى مجاهدة ومكابدة، ومراغمة للنفس والأهواء،

حتى تتجلى صور الذات ناصعة مشرقة، فالذات صديقة من يسيطر على ذاته عبر ذاته، أما غير البارع في السيطرة على ذاته، فإن ذاته تصبح أشبه بعدو في الحرب.

وقوة الذات قد تحوّل الجبل إلى حبة خردل، وخور الذات قد يحوّل حبة الخردل إلى جبل، مصباح الإنسان قلبه، ومداره نفسه، هو وحده من يعرف الحق والصواب عن ذاته في هذا العالم، والباقي سراب، ﴿بَلِ الإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (١٤) وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَه﴾ [القيامة:١٤ -١٥]، نعم. ... ولو ألقى معاذيره.... فهو البصير بذاته عن علم ويقين، فليتحمل المسؤولية، وليكن أهلا للارتقاء بعد المعرفة.

يقول العالم النفساني الأمريكي وليم جيمس: «لو قسنا أنفسنا بما يجب أن نكون عليه لاتضح لنا أننا أنصاف أحياء، ذلك لأننا لا نستخدم إلا جانبا يسيرا من مواردنا الجسمانية والذهنية، أو بمعنى آخر، إن الواحد منا يعيش في حدود معينة يصنعها داخل حدوده الحقيقية، فالإنسان يملك قوى كثيرة مختلفة، ولكنه لا يفطن إليها عادة، أو يخفق في استغلالها عادة».

وهذا يقودنا إلى الفكرة التي سماها الكاتب جمال أنعم (بالحضور الخاص)، ففي القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف نجد إلحاحا مستمرا على إنكار امتداح الذات والعجب والاغترار بالنعمة والعمل، وهو دليل على نزوع إنساني أصيل للتمركز ورؤية الذات والنظر

إليها بتبجيل وتعظيم، كثيراً ما يصل حد التضخم والانتفاش والتطاوس والغرور والكبر وغمط الآخرين والانتقاص منهم والتعامل معهم باحتقار ودونية وصلف وتعالٍ.

لذا يستهدف الخطاب الإسلامي تشذيب هذا النزوع وتهذيبه وكبحه، فيقول لنا سبحانه وتعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النّجم:٣٢]، ولا تدّعوا الخيرية، ولا تتفاخروا بكل ما هو عرضي وثانوي، ودعوا خيريتكم تتحدث عن نفسها، دعوا صدقكم يفصح عن نفسه، تواضعوا يرفع الله قدركم أكثر، لا تقطعوا الطريق على أنفسكم لتحقيق الكمالات بادعاء الكمال المطلق، لأن نقصكم الدائم هو آيتكم في طلب الازدياد، هو شرط وجودكم الحي الموّار، الذي يبقيكم في حالة توتر وقلق يدفعكم للبحث عن الامتلاء والترقي والسمو.

إنّ الشعور بالكمال المطلق لدى الإنسان يعني موته التام، وإنكار الذات الإيجابي هو نفي لما هو عرضي وزائل وسطحي وممرض، وإثبات لما هو جوهري وباقٍ، ولكل ما هو أصيل ونبيل وراسخ لكل ما يجسد الحضور الخالص. فالله -جل جلاله-هو الكمال المطلق ويتجلّى فينا كماله سبحانه بقدر اتصالنا به، وحياتنا به هي تمام الوجود المكتفي بذاته الغنى عما سواه القوي والعزيز به.

وحاجة تحقيق الذات تستدعي مضاعفة إنتاج الفرد، وبلوغ أقصى

ما يستطيعه من الإبداع. فالمفكر يحتاج أن يكتب ويفرز أحسن ما يستطيعه من الأفكار، والقائد يحتاج أن يحقق أروع الانتصارات ويكسب المعارك، والسياسي يحتاج أن ينجز أعظم الأعمال. «وهكذا فإن تحقيق الذات هو الرغبة في أن يصبح المرء ما في قدرته أن يكون». وفق تعبير الدكتور ماجد الكيلاني.

وأفضل طريقة لمعرفة الذات لا تكون بالتفكير في فعل الأمور بل بالقيام بها. فليبذل الإنسان ما بوسعه للقيام بواجباته، وقريبا سوف يكتشف من هو، فحقيقة الذات في تكوينها، تتضمن أبعاداً ثلاثة: ما يتصوره الإنسان عن نفسه، وما يتصوره الآخرون عنه، وما يعتقده الإنسان عن تصور الآخرين له.

وعلينا أن نتعلم كيف نتخلى عن قوقعتنا القديمة الصلبة لتنمو أنفسنا الداخلية بنعومة أكبر ورقة أكثر. وتأمل معي الخلاصة التي توصل إليها الشيخ علي الطنطاوي عن تبدل عواطفه، وتغير بعض أفكاره وأحكامه، ونظرته للحياة، حيث يقول: «إن عواطف نفسي تتبدل باستمرار، فأحب اليوم ماكنت أكره بالأمس، وأكره ماكنت أحبه بالأمس. أحكام عقلي تتغير فأصوِّبُ ماكنت أراه خطأ، وأخطِّئُ ماكنت أراه صوابا». وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على تغيُّر وتجدد رؤية الإنسان فيما حقه التغيير، نظراً لاتساع علمه وارتقاء فكره، وتعدد خبراته وتجاربه.

ولتنظر إلى نفسك في الناس كما تنظر لنفسك في المرآة، وافعل ما تحب أن يعرفك الناس به، وما تحب أن تسمعه من أفواههم، فالظاهر مرآة تنعكس عليها صفحة الباطن، وحينما لا تنعكس آثار الباطن على الظاهر فذلك دليل على خلل في ذلك الباطن الذي انقطعت اتصالاته بظاهره.

فالوجه للقلب كالمرآة مُظهِرةٌ

والقلب للوجه كالمشكاة توقده

وخير مرآة ترى فيها نفسك كإنسان سوي هي أعمالك. وليس هناك أي نظام للوقاية من أهواء الذات ومغريات الواقع. حتى إننا في كثير من الأحيان لنرى الدنيا من خلال أنفسنا لا كما هي في الواقع، وهذا يدل دلالة واضحة على ما تحدثه ذاتية الإنسان ونفسيته وعقليته من تأثير على كثير من أفكاره وأحكامه ومواقفه. وإذا وقفت أمام المرآة لتصلح هندامك، فاذكر أنك تبصر في المرآة كائنا مكرماً، تتمثل فيه كل خصائص النوع الإنساني بجميع بُؤسه ومجمل عظمته.

نعم إن الإنسان إنسانٌ بفكره وعقائده، إلا أن ما ينعكس على مرايا عقله من مشاهد يستقيها من خلال نَظرهِ ومدركات حواسه، تؤثر فيه أشد التأثير، فكل شُهودٍ يُحدِثُ فكرًا، وكل فكر يكون له أثر في الإنسان، وعن كل إنسان ينشأ عمل، ثم يعود من العمل إلى

الفكر، ولا ينقطع العقل والانفعال بين الأعمال والأفكار ما دامت الأرواح في الأجساد، وكل قبيل هو للآخر عماد.

وهناك ضرورة ملحة للقراءة العميقة، وفق تأكيد د. جاسم سلطان، تلك القراءة وذاك العمل الدائب الذي يتعدى القراءة المسطحة للنصوص، ويصل إلى عمق الروح فيها، فيغيِّر كيمياءها، ويجعل مرآة النفس حساسة تجاه الأمر والنهي. ومن دون جلاء المرآة لا يعطي الكتاب ثماره، ولا تحدث الهداية، ولا يتغير الواقع. كما أن دقة المناهج ودرجة كفاءتها يظهر في قلة الخلاف حول إجاباتها...ولا يوجد علم إلا ويعاني من قصور المنهج بدرجة ما... ولكن العلوم التي تعترف بقصور المنهج تتطور باستمرار، والتي تعيش على وهم الكمال تتراجع باستمرار، لأن الزمن يستمر في تجديدها، ونفس الحال يجري على الإنسان كفرد وعلى المجتمعات والحضارات.

إن هناك فارقاً كبيرا بين (إنسان أمين) وإنسان (يتحلى بفضيلة الأمانة)، الأول استكمل وحقق نموه النفسي كل أغراضه الفاضلة، والآخر لم تكتمل فيه تلك الخصائص، ولكن تحققت عنده فضيلة النمو، التي ستؤهله للوصول إلى الكمال البشري المستطاع.

وأختم مقالات المرايا الذاتية، بما أرى أنه يصقلها ويصفيها، ويجعلها أهلا للارتقاء والنمو، وأقصد بذلك العلم كفضيلة ومسؤولية، بما له من مكانة وأهمية، واستعير بعضاً من الكلمات المشرقة التي

دبجها المفكر أ.د/ فؤاد البناء، فهي تعبّر أيّما تعبير عما أود الوصول إليه من خلال هذه المرايا، حيث يقول متحدثاً عن العلم: «العلم يورِّث تقدير العواقب ومعرفة المآلات، إذ يضيء للمرء دربه فيعرف أين يضع قدمه. ولهذا فإن العالِم يدري متى يكِرُّ ومتى يفِرُّ، أين يُقْدِم وأين يُحجِم، حيث يمتلك بوصلة تهديه إلى كل خير وتحذره من كل شر، وهو لا يعدل بالسلامة شيئًا.

العلم يصنع للفرد المرآة التي يرى بها جهله، والدواء الذي يقيه من التضخم وتورم الذات ليظل صغيرًا متواضعًا، فيُكْبِره الناس، ويَعظُم عند الله. إنه (أي العلم) زاد الحياء وإكسير الحياة، وهو حصن من الكبْر وترياق الخلاص من العبودية لغير الله، وهو الآلة التي تُرِي صاحبها الأشياء كما هي دون تصغير أو تكبير ومن غير تهويل أو تهوين، ولا شك أن ذلك كله يؤدي إلى سداد الرؤية ورشد الفكرة، وصواب الموقف والقرار، ومن هناك تتبارك العبادات المبنية على علم، وترتقي الذات السائرة على هذا الطريق. صفوة القول، فإن العلم يهيئ صاحبه للانكسار أمام رب السماوات، والشموخ أمام التحديات، إنه يهديه إلى «البِر» ويُسلِمه إلى«التقوى» حتى لا يراه الله حيث نهاه، ولا يفقده حيث أمره».

«مرآة الفطرة... مركزية «الأصيل» في مواجهة «الدخيل»

يا رب... وأنت الجميل الذي خلقت كل شيء جميلاً، وخلقتني كذلك، وأردت لي أن أكون كما خلقتني، أبقني على فطرتك بعيدًا عن تشويهِ ذاتي.

يا رب... وكل نَفَسٍ يقربني إليك، وكل صباحٍ أستفتح فيه باسمك، امنحني القوة ألا تتعثر خطاي في مسيري إليك، وألا أقوى على ظلم أحد من خلقك.

يا رب... منحتني عينين ولسانًا وشفتين، اهدني ألا تنشغل هذه الجوارح بغيرك عنك.

يا رب... أعطني حرية بقدر عبوديتي لك، ويقينًا بقدر توكلي عليك، واجعل ما بيني وبينك مسافة رجاء وحب... وقربها.

يترسخ في العقول والقلوب أن الحقيقة أعظم من أن تعبّأ في زجاجة، وفق تعبير (د. وليد سيف، في كتابه الشاهد والشهود)، وليست وجودا مكتملا ناجزا، يمكن أن تحتكر امتلاكه جهة واحدة بعينها، وأن الحكمة تبقى ضالة متوزعة في الإنسانية كلها، ما مضى من تاريخها وما هو آت، ولسوف تنقضي الحياة على الأرض وفي النفس بقية من أسئلتها. وذاك شرط وجودي إنساني. وما كان كذلك فلا ينبغي له أن يتناقض مع الدين الذي يعتقد المؤمن أنه خرج من المشكاة نفسها التي خرجت منها الفطرة التي فطر الله الناس

عليها!

وليس الأصل أن يكون في القلوب زيغ، فالفطرة السليمة لا زيغ فيها، لكن الأهواء هي التي تجعل القلوب تزيغ، وقد يكون الإنسان عارفاً لحكم الله الصحيح في أمر ما، لكن هوى الإنسان يغلب فيميل الإنسان عن حكم الله. والميل صَنعةُ القلب، فالإنسان قد يُخضِعُ منطقه وفكره ليخدم ميل قلبه، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به».

ولهذا لا بدّ أن يكون عندنا إيمانٌ عميق بأن الإنسان مهما طغى وتجبر وابتعد عن الله، فإنه «يظل قادرا على تحسس الحق ومعاني الخير، بسبب الدوافع الخيِّرة الكامنة في فطرته، التي فطره الله عليها، وهي فطرة قابلة للاستيقاظ من حال الرقود على صوت خيِّر وكلمة حلوة، تنفتح عليها الروح في حالات الهدوء والتأمل». وفق تعبير (د. محمد حسين فضل الله، في كتابه الحوار في القرآن).

وفي هذا الإطار يحدثنا د. كمال حبيب في بحث له عن الراحل د. عبدالوهاب المسيري، أنه كان لديه (يعني المسيري) كما قال لحبيب: «أرضية إيمانية يقف عليها دون أن يدري»، وهذا ما جعل الباحث بذهب إلى أن الفكرة الإسلامية لم تمت داخل نفس المسيري ولكنها طُمرت واختفت تحت مظاهر «فاوستية» ذات طابع نرجسي متمرد، ولكنها (أي الفطرة) ظلت تعمل وتؤثر في روحه وهو

يقاوم حتى آب إلى ربه، ﴿يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ [الانشقاق:٦] ، وصورة المسيري هي صورة كثير من مجتمعاتنا ونخبنا، التي حاولت التمرد على الإيمان، والجري وراء الحداثة، ولكنها تقاوم، بيد أنها في النهاية لا بد من عودتها لربها، إذا رزقها الله التوفيق، فوفقاً لنظرية المعرفة الإسلامية فإن الإنسان هو مرآة لتجلي صفات الله وأسمائه، والمجتمع هو مرآة لتجلي صفات الإنسان الرباني فيه.

وقد شرح (ابن عاشور معنى الفطرة، في كتابه مقاصد الشريعة) بقوله: الفطرة هي: «الخِلقَة، أي النظام الذي أوجده الله في كل مخلوق، ففطرة الإنسان هي ما فطر ـ أي خُلِقَ ـ عليه الإنسان ظاهرا وباطنا، أي جسدا وعقلا، فمَشيُ الإنسان برجليه فطرة جسدية، ومحاولة أن يتناول الأشياء برجليه خلاف الفطرة، واستنتاج المسببات من أسبابها والنتائج من مقدماتها فطرة عقلية، أما استنتاج الشيء من غير سببه فإنه خلاف الفطرة العقلية».

والفطرة وفق تعريف (أ. د. أحمد الدغشي في كتابه الأساس الفطري للتربية الإسلامية): «عبارة عن بصيرة طبيعية، ثابتة في جوهرها، يولد المرء مزودا بها، لتنزع به نحو الخير، في صورته الكلية المجملة (توحيد الله عز وجل)، وتمثل جوانبها الروحية والعقلية والنفسية نظاما متكامل الحلقات». والفطرة لا تتبدل بصورة كلّية

مصداقا لقوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الرُّوم:٣٠] ، حيث إن تبديل الفطرة محال قطعا، في حين أن التغيير فيها موضوع نسبي وهو في كل أحواله لن يبلغ درجة التبديل الكامل، ولذلك وجدنا أن الجاحد بالله تعالى، لا يتردد في شعوره، أو لا شعوره، من أن يعلن فزعه إلى الله تعالى، وأن يلوذ بجنابه، رغم انقضاء جُلّ عمره أو كله في محاربة عين الفكرة».

ولنتأمل جميعا الحديث الذي أورده الإمام الترمذي، عن عمران بن حصين، قال: قال النبي ﷺ لأبي: (يا حصين كم تعبد اليوم إلهاً؟) قال أبي: سبعة: ستة في الأرض، وواحداً في السماء. قال: ((فأيهم تعد لرغبتك ورهبتك؟) قال: الذي في السماء. قال: (يا حصين! أما إنك لو أسلمت علمتك كلمتين تنفعانك) قال: فلمّا أسلم حصين قال: يا رسول الله! علمني الكلمتين اللتين وعدتني فقال: (قل اللهم ألهمني رشدي، وأعذني من شر نفسي). وفي هذا الحديث، ومن خلال إجابة حصين إشارة ودلالة على مركزية الفطرة كأصل ثابت (الذي في السماء)، وهامشية وسطحية الدخيل على الفطرة (ستة في الأرض)، ولكن عندما يُنفض الغبار، وتنقشع الغيوم، ولا يجد الإنسان مفراً، عندها لا يظهر على المرآة إلا نقاء الفطرة وصفاؤها (فأيهم تعدُّ لرغبتك ورهبتك؟)، فكانت الإجابة:

أنه ليس هناك غير خالق الفطرة التي فطر الناس عليها، الذي يُلهِمُ للرشاد، ويعين المرء على شر نفسه.

إن أكثر اضطراب الأوضاع في المجتمعات المعاصرة ناشئ من مصادمة الفطرة، في السلوك الاجتماعي للأفراد والجماعات، أو في التنظيمات والتشريعات. وإن مقتضى الفطرة السليمة للخروج من هذا الاضطراب هو أن يستعمل الإنسان عقله في كل ما يعرض له في حياته، ويتّبِع فيه ما يظهر له بَعدَ النظر والبحث أنه الحق، الذي في اتباعه خيرهُ ومنفعته العاجلة والآجلة وكماله الإنساني. والواقعية الإسلامية ترى الإنسان كما هو، وترى الأشياء كما هي، فلا تغلو بالحديث عن مكامن الشر في الإنسان أو مكامن الخير فيه. وقد جاء الدين القيِّم ليبعث الحياة بمكامن الخير القطرية في البشر في مواجهة غرائزهم وما ران على قلوبهم وشوّه فطرتهم من انفلات لنوازع الطغيان والركض وراء الهوى والظلم والفحشاء.

والأصل في النفس الإنسانية أنها قابلة للتعلم؛ لأن العلم والحكمة كامنان أصلا في نفس الإنسان. «فهما مركوزان فيها بالقوة في أول الفطرة، ولا بد من سعي في إبرازهما بالفعل، كما لا بد من سعي في حفر الآبار لخروج الماء». (أبو حامد الغزالي، ميزان العمل).

لقد عانى علماء النفس طويلاً حتى استشرفوا الأساس الأقوم لدراسة النفس الإنسانية، وهو أن الإنسان صالح بالفطرة، ويوجهه حب المعرفة، ويتوجه نحو المعاني. وأن الإنسان مخلوقٌ خيِّرٌ في أصله، فكل ما فيه من خير هو مما فطره الله عليه في أصل خلقته، وكل ما فيه من شر فأمر عارض اكتسبه ببعده عن تلك الفطرة.

وهو ما توصل إليه الباحث (أ. د. أحمد الدغشي في أطروحته للماجستير بعنوان الأساس الفطري للتربية الإسلامية) من أن الإنسان يولد مفطوراً على الخير، لا أنه يولد محايداً كما تقول بعض النظريات. أما عن حرية الإرادة فقد توصّل إلى أن الإنسان مخلوق متميِّز بإرادة حرة مستقلة، وإن كانت منفصلة عن كينونته أثناء الانفطار على الخير حين الولادة، إذ لا تعمل وظائفها إلا بعد بلوغه الرشد، حين يكون مسؤولا عن مصيره. وتتسم جوانب الروح والعقل والنفس بالانتظام والتكامل، فمع اختصاص كل منها بجانب من زاويته الفطرية، إلا أنه لا يعمل إلا في إطار بقية الجوانب. وإن الاتجاه القائل بخيرية الإنسان ابتداءً أقوى في دلالته من الاتجاه الآخر، وهو القول بحيادية الفطرة فضلاً عن الاتجاه القائل بالشر كأساس فطري، وعليه وفي ضوء دراسة الباحث المتعمقة للنصوص والترجيح بينها، فقد تبنّي الباحث الاتجاه الخيِّر للنفس الإنسانية.

وفي قوله تبارك وتعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الرُّوم:٣٠] إشارة إلى تأكيد الإسلام على ثبات الفطرة وخيريتها، مما يجعلها هي السابقة على الانتماءات الدينية والثقافية والحضارية، كما يشير إلى ذلك (أ. د جعفر شيخ إدريس). فليست الثقافات والحضارات هي التي تصنع فطرة الإنسان وتحدد سلوكه وطرائق تفكيره، كما تقول بذلك بعض النظريات الغربية، وإنما فطرته هي المعيار الذي يمكّنه من الحكم على تلك الثقافات والحضارات، فما وافقها كان موافقا للإنسان وسببا لسعادته، وما خالفها كان من أسباب شقائه، فهو مخيّر بين البقاء عليه أو الانفكاك عنه.

وحديث الرسول ﷺ: (كل مولود يولد على الفطرة...) يدل على أن الإنسان وإن كان لا يولد عالِما بشيء، إلا أنه لا يولد بعقل فارغ، وإنما يولد وفي عقله بذور علم تنمو بنموه، وتبلغ كمالها بنضجه، لكن هذا العلم المبذور أصله في الإنسان يمكن أن تعارضه المؤثرات الخارجية، وإن كانت لا تملك إزالته.

ومعنى الفطرة أن الله صاغ الإنسان وكونه وركبه بحيث لا يصلح له إلا الخير، وأن الله جعل معرفة ذلك مركوزة في نفس الإنسان لا يحتاج إلى من يعلّمه ذلك من خارجه، وإن كان العلم الخارجي يزيده قوة. ومعنى الفطرة بشكل أدق، هو استعداد للميل إلى الحق،

وهذا الاستعداد يجعله يختار الحق، حين تترك له حرية الاختيار، على ألا يلحق هذا الاستعداد تشويه. لنقل إذن أن ما درج الإنسان عليه وتعوده يجري عنده بمثابة الشيء الطبيعي، فلا شيء ينتسب إلى فطرته سوى ما تدعوه إليه طبيعته الخالصة التي لم يمسها التغيير. ومنه كانت العادة أول أسباب العبودية المختارة. وفق تعبير المفكر السوري جودت سعيد.

والحاسة الخلقية أمر فطري جُبِلَ عليه الانسان منذ خُلِق، ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا(٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس:٧-٨]، فهي تعني إدراك للخير وللشر وانفعال أيضا بالخير والشر، ثم نزوع لفعل الخير والشر. وهي (أي الفطرة) نبتة ضعيفة بحاجة للرعاية لتنمو وتسمو. «والجينات في الإسلام ليست معبأة بعقائد، بل معبأة بالفطرة». كما يقول د. المسيري.

والفطرة الإنسانية رغم تبدلها بفعل الاكتساب الإنساني، فإن تبدلها أو تشوهها، غير مانع بصفة مطلقة أو حتمية مؤكدة، عودة بروزها، لتعبر عن الجوهر الإنساني المشترك. «وطبيعة الفطرة الإنسانية تتنازعها حالات السوية والانحراف، الحالة الملائكية والحالة الشيطانية، فكما لها في الحق نصيب، فهي لا تسلم من استلاب الباطل لها». حسب وصف المهندس أحمد الأسودي.

وما تشير إليه تكملة الحديث الذي ذكرناه سابقاً: (... ولكنْ أبواه

يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه)، يعني أن البيئة المحيطة بالإنسان، تعمل في فطرته وتشكّلها، وتذهب بها ذات اليمين أو ذات الشمال، وذلك لا يتعارض مع قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الرُّوم:٣٠] ، فالمعنى هنا، أن الخلق لا يتبدل، فيخلقوا على غير الفطرة، ولم يرد بذلك أن الفطرة لا تتغير بعد الخلق، بل إن نفس الحديث يبين أنها تتغير، ولهذا شبهها بالبهيمة التي تولد جمعاء ثم تجدع، ولا تولد قط مخصيّة ولا مجدوعة.

والفطرة إذا فسدت، أو تحوّلت عن الحق، أو ضلت سبيلها نحو معرفة الخير، فإن ذلك يكون لعارضٍ طارئ عليها من خارج ذاتها كما أشار النبي ﷺ (فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه)، أو كما أخبر سبحانه في الحديث القدسي (فاجتالتهم الشياطين)، وهذا يتمثل في عامل الشهوة والغفلة أو الجهل أو الهوى، كما يؤكد على ذلك (د. محمد السيد الجليند)، فالغفلة والشهوة أصل من أصول الشر في الإنسان، والهوى لا يستقل وحده كدافع على ارتكاب الشر بل لا بد معه من عامل آخر كالجهل. وإلا فصاحب الهوى إذا علم قطعا أن ذلك يضره ضررا راجحا انصرفت عنه نفسه بالطبع استجابة للفطرة، لأن الله طبعه على حبه للنافع، فلا يفعل إنسان ما يجزم بأنه ضرر راجح. وإذا فعله كان ذلك لفساد فطرته وجهله.

وعندما يقول علي عزت بيجوفيتش، في كتابه الإسلام بين الشرق والغرب، إن الإسلام لا يتعسّف بتنمية خصال لا جذور لها في طبيعة الإنسان، فإنه يعني ما يقول. فالإسلام لا يحاول أن يجعل منا ملائكة، لأن هذا مستحيل، بل يميل ويسعى إلى جعل الإنسان إنسانًا. ففي الإسلام قدْرٌ من الزهد، ولكنه لم يحاول به أن يدمّر الحياة، أو الصحة، أو الفكر، أو حب الاجتماع بالآخرين، أو الرغبة في السعادة والمتعة. هذا القدْر من الزهد أُريدَ به توازنًا في غرائزنا، أو توفيرا لنوع من التوازن بين الجسم والروح... بين الدوافع الحيوانية والدوافع الأخلاقية. وهكذا ـ ومن خلال العبادات المفروضة والمسنونة، والنشاط والملاحظة، والكدح والتوسط ـ يواصل الإسلام عمل الفطرة في تشكيل الإنسان، فلا مكان هنا لمقاومة هذه الطبيعة؛ التي فطر الله النفوس عليها.

والتّديُّن - كمرآة من المرايا الفطرية -، من الأمور التي لا تحتاج إلى دليل لإثبات صحّتها؛ لأنّها قضية فِطرية، وغريزة إنسانيّة، وحاجة نفسيّة؛ فإنّ الله – سبحانه وتعالى - قد فطر الإنسان على مَحبة الخير، ومحبة الحق، وتحصيلهما، والسعي إليهما، والاطمئنان لهما، ومن منطق هذه الغريزة الفطريّة نجد كل إنسان - بل كل كائن حي - يسعى جاهدًا لما يظنُّه خيرًا له، وما يعتقد أنّه الحق، ويسعى في طلبهما، وقد يُقاتل دونهما، وهذا أمرٌ يُحِسُّه كلّ منّا

في داخله بحيث لا يحتاج إلى برهنة أو استدلال، فأنت ترى الطِّفل حين يُولد مدفوعًا إلى التقام ثدي أمِّه، دون مُعلم ولا مُرشد؛ كما لو كان مدرّبًا على ذلك من قبل، وليس هذا في طفل الإنسان فقط، بل نجده في طفل الحيوان أيضًا؛ وذلك استجابة لتلك الغريزة الفطرية التي فطر الله عليها كلّ كائن حي؛ محبةً للخير، ومحبةً للحق، وتحقيقًا لما يظنّه الإنسان خيرًا.

والإلحاد يُناقض الفطرة الإنسانيّة ويعارضها، وكل أمر معارض للفطرة؛ فإنه مرفوض في منطق العقل وتحكيم الواقع، ومن هنا كان التّدين أمانًا للنّفوس واطمئنانًا للقلب. حيث إن حاجة النّفس إلى التّدين كحاجة الجسم إلى الطّعام، وكما إنّ المعدة لا ترفض الطعام إلاّ لمرضٍ طرأ عليها، فكذلك النُفوس لا ترفضُ التدين إلاّ لعِلّة عارضة وشبهة طارئة، وإذا زالَ المرض عادت النّفس إلى حالتها من الصّحة، فتقبل التّدين الذي هو مُقتَضَى فطرتها. وليس ذلك إلاّ لأنّ التّدين أصيل في النّفس الإنسانيّة، والإلحاد عارض عليه، التّدين فطرة والإلحادُ حالة طارئة؛ لعِلّة مرضيّة وشبهة عارضة، حسب تأكيد الدكتور محمد السيد الجليند في أكثر من كتاب له.

والفطرة تقترن في التصور الإسلامي بالوحدانية والدين، فالدين فطرة والشهادة الأولى التي أخذها الله من ذرية بني آدم مغروسة

فيها، لكن الوعي بها يتأثر بالبيئة والتنشئة والمجتمع، وهنا تصبح الفطرة في التصور الإسلامي قرينة للبراءة الأولى للنفس عند الميلاد، في مقابل فكرة الخطيئة الأولى في الخطاب المسيحي تاريخيا من جهة، وقرينة توحيد الله أصل في فطرة الإنسان بشهادة التوحيد التي كانت في الأزل، ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف:١٧٢] .

وحقيقة الدين مغروسة في طبائع الفطرة الإنسانية، حسب تأكيد د. مصطفى منجود، كما إن الحاجة إلى الأعلى الذي تؤول إليه المرجعية النهائية في تفسير حقائق الوجود، وتدبير أمور العيش والأرزاق، وكفالة الأمن والطمأنينة، وتحقيق الخير، تسوق الإنسان غالبا إلى البحث عن هذا الأعلى، واتخاذه ملاذا وملجأ في الحياة. فالفطرة تسوق الإنسان إلى الارتباط بدين سماوي ـ أو غير سماوي ـ تكمّلها فطرة أخرى تحدّث عنها المفكرون السياسيون منذ القِدم وهي فطرة الحاجة إلى الاجتماع الإنساني، والتي بموجبها نُقل عن الكثير منهم قولهم: إن الإنسان مخلوق اجتماعي ـ أو مدني بطبعه ـ فلا يستطيع أن يعيش بمفرده إلا إذا كان فوق البشر (أي إلها)، أو كان دونهم (أي حيوانا).

يقول الدكتور يوسف القرضاوي: «وإن من العبث، كل العبث، أن

يُراد صبّ الناس كلهم في قالب واحد في كل شيء وجعلهم نسخًا مكررة، ومحو كل اختلاف بينهم، فهذا غير ممكن؛ لأنه مخالف لفطرة الله التي فطر الله عليها الناس، وغير نافع لو أمكن؛ لأنه لا نفع في مخالفة الفطرة، بل من خالف الفطرة عاقبته عقابًا معجلا. ثم إن هذا الاختلاف إنما هو اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد، والتنوع دائمًا مصدر إثراء وخصوبة.

إن اتساع نطاق البحوث حول الدين وقضاياه المختلفة وتأثيره في حياة البشر يؤكد أن التدين فطرة أساسية. وأن الدين أمر إلهي، والتدين فطرة بشرية (فأبواه يهودانه أو ينصرانه ...) والتوسط منهج إسلامي لا إفراط ولا تفريط. وأن للفطرة طريقة خفية في إدراك وجود الله، والإيمان بوجوده، والاتصال به، والاستعانة به، والتزود من زاده.

والنفوس المنحرفة تَنْفُرُ من قيود الدين السماوي والتزاماته كما يشير إلى ذلك الأستاذ محمد قطب، لا لأن الدين ليس فطرة، أو أن الالتزام ليس فطرة، ولكن لأن انحرافات هذه النفوس تجعلها معوجة، فلذلك تحس أن الاعتدال والاستواء والاستقامة الموجودة في الدين تضغطها وترهق كيانها الذي لا يصبر على الاستواء. فالفطرة كالإناء الذي يوضع فيه الماء، إذا ثُقِب أو صُدِع أو بُسط، لن يستقر فيه الماء، وهكذا حال الوحي الرباني مع الفطرة

المتغيرة.

والتشريع الإسلامي لا يأمر بفضيلة إلا وواقع الفطرة السليمة يرضاها ويحبها ويحب من يتصف بها، ولا ينهى عن رذيلة إلا وواقع الفطرة السليمة يبغضها ويكرهها، ويأنف المرء أن يتصف بها، وهذا من دلائل تيسير الله للإنسان لكي يسير في طريق الفضيلة التي تتوافق مع فطرته، والعدول عن طريق الرذيلة التي تتناقض مع فطرته.

وفي هذا السياق يمكن أن يفهم حديث النبي ﷺ الذي أشار إلى جانب النفس وعلاقتها بالفطرة حين قال: (استفت نفسك، البر ما اطمأنت إليه النفس، والإثم ما حاك في القلب وتردد في الصدر وإن أفتاك الناس). فالحديث يحمل إشارة إلى مقدرة الأساس الفطري في جانب النفس على التفاعل مع الخير إيجابا، ومع الشر نفورا ومقاومة، حسب وصف أ. د. أحمد الدغشي

والإنسان مفطور على إشباع رغبات النفس وشهواتها ولذاتها، فللنفس حق فطري أن تستمتع، فليست أصول رغبات النفس شيطانية، وجميعها ليست عدوّة للإنسان، ومنع النفس من حقها في المتعة والشهوة أذيّة لها، وربما يدفعها ذلك إلى التمرد على الإنسان، والخروج عن قيده، وكم من أناس حَرَمُوا النفس حقها الفطري، فكان ذلك وبالا عليها ابتداء، وعلى الإنسان انتهاء.

والحرمان من شيء فطري يحمل الإنسان على البحث عن نظيره،

كما يقول د. سلمان العودة، ولذا يلجأ إنسان المجتمعات الاستبدادية إلى الحديث عن الجنس، أو الاستطراد الدائم في تفاصيل مكررة في الحياة، أو الجدل حول قضايا علمية معادة ومتكررة، تعويضًا لا شعوريًا عن المفقود وتفعيلاً لغريزة تقدير الذات، وهذا ليس بخافٍ على من يطالع أحوال عالمنا العربي والإسلامي.

إن الأنبياء -صلوات ربي وسلامه عليهم-إنما بُعثوا بتكميل الفطرة وتقريرها، لا بتبديلها وتغييرها، كما في حديث النبي ﷺ : (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق). والشريعة إنما جاءت بتعاليمها لتوجه الإنسان في مقتضيات الفطرة والغريزة إلى الحدّ الأوسط. فهي لم تنزل لانتزاع غريزة حب المال، وإنما نزلت بتعديلها على الوجه الذي (لا جشع فيه ولا إسراف ولا تقتير). وهي لم تنزل كذلك لانتزاع غريزة الحزن، وإنما نزلت بتعديلها على الوجه الذي (لا هلع فيه ولا جزع ولا يأس من رحمة الله). كما لم تنزل لانتزاع غريزة حب المناظر الطيبة والمسموعات المُستلَذّة، وإنما نزلت بتهذيبها وتعديلها على وجه الذي (لا ضرر فيه ولا شرّ). «وهكذا تقف الشريعة بالنسبة إلى سائر الغرائز موقف الاعتدال والقصد والتنظيم وكبح الجماح عن الحدّ الذي قد يُنسي الإنسان واجباته، أو يفسد عليه أخلاقه، أو يحول بينه وبين أعمال أخرى ألزم وأوجب. وقفت هذه الشريعة موقف الاعتدال والتنظيم، لا الإفراط ولا التفريط،

ولا الإماتة ولا الانتزاع. فما أعظمها وأكرمها من شريعة». د. يحيى رضا جاد .

والنفس بطبعها حية كثيرة التحول والتقلّب من حال إلى حال، كما يصفها د. محمد السيد الجليند، لأن الآدمي كما أخبر الرسول ﷺ (حارس همام) أي كثير الهم وجاء في الحديث (أن القلب أشد تقلبا من القدر إذا استجمعت غليانا)، فالتقلب من لوازم النفس، كما أن الحركة من لوازمها كذلك، فكون النفس نفسا هو معنى كونها مُريدة متحركة، لأن ذلك من مقتضى كونها حية الحياة الطبيعية، وإذا لم تتحرك نحو ما فُطِرت عليه من جلب النافع ومحبة الخير، تحركت لتحصيل ضده، وهو حصول الضرر والشر. وهذا لا يكون إلا لمؤثر من خارج ذاتها، غير أن سبب ذلك هو غفلتها عن موجب فطرتها، لأن سعادتها في أن تحيا الحياة النافعة الكاملة، التي مقصودها تحصيل ما ينفع الحي ويستلذ به.

والواقع أن النفس الإنسانية في ظل التدين المعلول تعجز عن القيام بوظيفتها في الحياة، بينما تستطيع القيام بهذه الوظيفة نفس ليس لها من التدين إلا ما جُبِلت عليه من طباع وأفكار. أي أن «التدين الفاسد عطّل أجهزتها الفطرية. أما الإلحاد فقد أبقى هذه الأجهزة تتحرك، وإن طاشت حركتها حيناً، وأخطأت غايتها حيناً آخر». حسب وصف الشيخ محمد الغزالي.

وإذا أراد الإنسان الانسجام مع الكون، فليس بحاجة إلا إلى الانضباط بالقانون نفسه (قانون الفطرة)، تلك التي استودعها الله سبحانه وتعالى فيه من خلال الانضباط بقانون الله سبحانه وتعالى المسطور. وبهذا تكون الصورة متكاملة متناغمة يتوافق فيها مستودع الفطرة مع الكون المنظور والكتاب المسطور، ذلك أنها تصدر عن قرار واحد وقانون واحد؛ فعندما نُوفّق في العمل بالقانون المسطور نأتي الكون المنظور بما أمر خالقه أن نأتيه به.

ولا شك أن شعور الإنسان بالانتماء إلى قومية معيّنة شعور طبيعي فطري وهو في الإنسان كشعور الارتباط في الحيوان (بالقطيع) من جنسه، ولكن هذا الشعور في الإنسان يرتقي ويتهذّب كلما تقدم الإنسان، فتتسع دائرته ويصبح إنسانيا، ويسمو هدفه فيصبح أخلاقيا مثاليا، وللأديان وتعاليمها الإلهية أثر كبير في ترقية هذا الشعور، الذي نقل البشر من عصبيات القطيع إلى الشعور الإنساني، وإلى التعارف والتعاون،﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات:١٣]، ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ العِقَابِ﴾ [المائدة:٢]

ولكون الفطرة أمرا مغروسا في الإنسان فقد وصف ابن القيم الإنسان في تفسيره فقال: «قلبه مضيء يكاد يعرف الحق بفطرته وعقله، ولكن لا مادة له من نفسه، فجاءت مادة الوحي فباشرت

قلبه وخالطت بشاشته، فازداد نورا بالوحي على نوره الذي فطره الله تعالى عليه، فاجتمع له نور الوحي إلى نور الفطرة، نور على نور، فيكاد ينطق بالحق وإن لم يسمع فيه أثرا، ثم يسمع من الوحي ما يطابق ما شهدت به فطرته».

والإسلام في محصلته ما هو إلا الفطرة السليمة التي فطر الله عليها خلقه،﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الرُّوم:٣٠] ، ولا سيما إذا كان لهذا الإنسان عقلا سويا يتفاعل التفاعل الصحيح مع الوحي الإلهي، وهذا المعنى هو ما فهمه ونادى به الأفذاذ ممن خبروا روح الإسلام، وسبروا أغواره الداعية إلى الفطرة المتأصِّلة في ذات الإنسان، والمستضيئة بنور الوحي.

والفطرة لا تستقيم ولا تتوازن إلا حين تُهذّب الخطوط المتقابلة كلها في ذات الوقت، وتغذّى بالغذاء الصالح السليم، كما يشير إلى ذلك الأستاذ/ محمد قطب، عندئذ يتوازن في الفطرة عنصر (المادة) مع عنصر (الروح)، وفيها يتوازن عنصر (العقل) مع عنصر (الأحاسيس والعواطف)، وفيها يتوازن (البعد الفردي) مع (البعد الجماعي) في ذات النفس، وهكذا فإن هذه الفطرة قائمة على توازن دقيق بين مكونات كثيرة من المتقابلات، ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التِّين:٤] ، فحسن التقويم إنما يظهر أكثر ما يظهر

في توازن ما خلق عليه الإنسان من القوى والمركبات المكوِّنة لفطرته، وليس لذلك التوازن نظير في سائر المخلوقات الإلهية الأخرى.

والعقل والشرع لا يأمران إلا بما تقتضيه الفطرة السليمة، وفق تأكيد د. محمد السيد الجليند، وإن الرسل إنما بعثوا لتكميل هذه الفطرة وتقويتها، ولو لم تكن الفطرة مركوزة على التمييز بين الحسن والقبيح لما قبلت الأمم دعوة الرسل إلى ذلك، وما استجابت لها، لأن أوامر الشرع ونواهيه إنما جاءت لتأكيد ما فطرت عليه النفوس، فتأمر بما ينفع الإنسان دينا ودنيا، وتنهى عما يفسد حاله دينا ودنيا، ولا صلاح للخلق إلا بذلك. وهذا مفطور وثابت فيهم سواء بعثت إليهم الرسل أم لا. وعلمهم بالنافع والضار يكون بحسب عقولهم وتصورهم لذلك ومعرفتهم به، ولهذا بعثت الرسل بتحصيل المصالح وتكثيرها، ودرء المفاسد وتقليلها.

والإنسان مخلوق موحِّد بالفطرة، على نحو إجمالي كلي، ومن ثم فهو خيِّر بالجِبلّة. والفطرة الإنسانية ثابتة في أصلها وجوهرها، متغيرة في بعض حالاتها أثناء التنشئة، وعبر مراحل النمو المختلفة، زيادة في النماء الإيجابي، أو تعرضا لحالات من التداعي السلبي، لكن هذا الأخير (أي التداعي السلبي) لا يقوى على تبديل فطرة الإنسان، كما أثبتت ذلك دراسة أ. د. أحمد الدغشي.

وصحيح أن دين الإسلام متوافق مع الفطرة تمام التوافق، ولكن سياق ما نطرحه يثبت أن للإنسان نزعة داخلية ذاتية نحو الدين والتدين، ولا تشترط أن يكون ذلك الدين هو الإسلام، بل قد يُشبع الإنسان ظمأ تلك النزعة بتشبّثه بأي دين، أيا ما كان مصدر هذا الدين، وطريقة تفكير وسلوك ملتزميه. ولكن هناك فارقٌ كبير جدا، بين أن يكون الإنسان معتنقا لعقيدة تؤيده فيما يبتغيه بفطرته، وبين عقيدة تشده في ناحية، وتشده الفطرة في ناحية أخرى.

والإسلام دين الفطرة التي خلق الله الناس عليها، وأوامر الله هي أوامر الفطرة التي جُبِلَ الناس عليها، فإذا نازع هوى الإنسان أمر الله فليس ذلك من استواء الطبع، وإنما من مخالفة الهوى لداعي الفطرة، وقد تكسب هذه المنازعة حسنات، ولكنها إن وجدت دلت على أن الإيمان في حاجة إلى تهذيب وإنماء وتكميل بتصحيح هوى الإنسان، وتوجيهه لمتابعة أمر الله الذي هو نداء الفطرة.

وقد شبّه ابن القيم ضبط الدوافع الفطرية بالنهر الذي يهدد حياة قرية مجاورة، ويختلف أهلها حول ما يجب عمله لدرء خطره، وينقسمون إلى أربع فئات مختلفة هي: الفئة الأولى: ترى ترك النهر على ما هو عليه، وهذه الفئة سوف يجرفها النهر عاجلاً أو آجلاً، وهذه الفئة حالها كحال من يسمح للدوافع الفطرية بالتعبير عن نفسها بغير ضابط ولا تهذيب.

وترى الفئة الثانية أن درء الخطر يكون عن طريق سد منابع النهر تماما، وهؤلاء حالهم كحال من يكبت الدوافع الفطرية التي هي غريزة في خلق الإنسان وفطرته، وكبتها لا يعني القضاء على وجودها، ولذلك تظل تتحين الفرص للظهور والإشباع، فإذا ما قاومها الإنسان طويلاً فإنها قد تورِث الأمراض النفسية أو الجسمية أو العقلية.

وتعتقد الفئة الثالثة أن درء الخطر يكون عن طريق بناء سد في مجرى النهر لحجز المياه فترة من الزمن، وهؤلاء يؤجلون الغرق بعض الوقت، وقد ينهار السد ويصبح الانهيار محققا.

والفئة الرابعة ترى درء الخطر عن طريق تحويل مجرى النهر إلى مكان آخر صالح للزراعة، وهذا هو الاقتراح الذي يُنجِي القرية من الغرق، فقد حولوا المياه (أو الدوافع الفطرية) عن طريق الضبط إلى قوة مثمرة خيِّرة.

وهكذا، نرى أن هناك فرقاً جوهرياً بين الكبت الذي يمنع الدوافع الفطرية من التعبير عن نفسها مما يؤدي إلى الأمراض النفسية، وبين الضبط الذي يوجه الدوافع إلى التعبير عن نفسها بطريقة فيها خير الإنسان والناس جميعا.

والإسلام أفسح للناس مجالات الابتكار والتفاعل في أمور الدنيا، مراعاة لغرائزهم واستجابة لدوافعهم النفسية، فالإسلام ليس ديناً

يكبت الغرائز، ويكبح جماح الدوافع، وإنما هو دين يقرُّ دافع حب الاستطلاع، والاستفادة من (الغير)، وجميع الغرائز والدوافع البشرية، ما لم يكن في ذلك مخالفة للشرع الحنيف.

والقابلية للتعود أساس في فطرة الإنسان. والعادة ترسم الفطرة وتحدد مساراتها. فسلوك الثعلب الماكر ليس عادة ولكنه (طبيعة)، مثل طبيعة الإحراق في النار. وميل أحد الجنسين للآخر ليس عادة ولكنه (فطرة) أو (غريزة). والموضة الشائعة في لباس الفتاة ليست عادة بل (تقليدا).

والعنف والغلو والإرهاب في المحصلة النهائية ظاهرة ثقافية سلوكية، وليس فطرة في الإنسان، وهذه الظاهرة تسكن في الأعماق، وتأتي ثمرة لما تعلمناه ورأيناه، مما شكّل ذاكرتنا وصنع مخيلتنا، حيث الثقافة هي في التعريف النهائي، ما يبقى في عقلنا الباطن من الدوافع والمحركات للسلوك وآلية التعامل مع المواقف، بعد أن ننسى ما تعلمنا.

وما يتميز به المسلم في ظل منهجه، أن فطرته لا تترك وشأنها، بل تحاط بمجموعة من المؤيدات التي تحفظ لها اتجاهها السوي، وترفده بروافد صافية قوية، تضيف إلى نزوع الفطرة نزوعا آخر إراديا فكريا. وبهذا يلتقي الفكر والإرادة مع الفطرة، فيكون ذلك بالنسبة للفطرة نورا على نور.

ومهمة التربية كما يقول الأستاذ محمد قطب، «هي إقامة الحواجز أمام الدوافع الفطرية، لا لكبتها من منبعها، ولكن لرفع مستواها، وتحويل طاقتها إلى عمل وإنتاج، أي إلى قيم مختلفة المجالات والدرجات».

والنفس الإنسانية تنطوي على توقٍ فطري إلى كائن عظيم تنسب إليه صفات الكمال، وتنشد عنده الحماية والأمن والطمأنينة، وهذا شعور يجده كل إنسان في نفسه في لحظات الضعف والفزع، وعند مشارف الهلاك، مهما شطّ به الغرور في أوقات السعة، وزمن الهدوء.

والناس يميلون بفطرتهم إلى الحق ويحبونه، مثل ميلهم إلى العدل والصدق والعلم والكرم إلى آخر ما يسميه الله معروفاً. كما ينفرون من الباطل ويكرهونه، مثل نفورهم من الظلم والكذب والجهل والبخل، إلى آخر ما يسميه الله منكراً، وإن حب المعروف وتعظيمه، وحب أهله مطبوع في فطر الناس، وقد يعجز الإنسان عن فعل المعروف أو لا يستطيعه، إلا أنه يُقرّ بفضل من يفعله.

كما أن التوازن في تلبية المطالب الفطرية مقصد شرعي، كما يؤكد على ذلك الدكتور عبد المجيد النجار، يندرج ضمن مقصد حفظ الفطرة نفسها، فكما تحفظ الفطرة من التبديل والتغيير، تحفظ أيضا من الميل في ذات مكوناتها، وتحفظ بتلبية مطالبها

ولكن بتوازن في تلك التلبية، فلا يعود الإغراق في بعضها بالكبت والإرهاق على بعض آخر، وكل ذلك يندرج ضمن مقصد أعلى هو حفظ إنسانية الإنسان.

والأحكام الشرعية على تعددها واختلاف مناحيها تلتقي كلها عند حكم المنع من الاعتداء على الفطرة الإنسانية جسما وروحا، وذلك بالسعي في تغييرها إما بالإزالة، أو بالاستبدال، أو بالتشويه، أو بالطمس والتغييب، حيث إن تغيير الفطرة الإنسانية أمرٌ صعب للغاية، وهو ما يقوم دليلا قاطعا على أن حفظ الفطرة مقصد شرعي كلي، ينتهي إلى المقصد الأعلى وهو حفظ إنسانية الإنسان، إذ الفطرة إحدى المكونات الأساسية لتلك الإنسانية.

وبالمقابل فإن المبادئ والقيم والمثل العليا، لن تبلغ غاياتها في حياة الإنسان إلا إذا غاصت في نفسه إلى عمقها، وتحوّلت عنده من حالة الوعي بها إلى حالة اللاوعي، بحيث تفعل فعلها فيه وكأنها جزء لا يتجزأ من فطرته، وعندئذ لا تسمع مثل ذلك الإنسان يقولها ألفاظا، ولكنك تراه في أوجه نشاطه يحياها سلوكا. «ودين الفطرة لا وجود له في بلاد تحيا على التصنُّع والتكلُّف والمراء والكذب». كما يقول الشيخ محمد الغزالي.

وقد تم التأكيد - فيما سبق من أجزاء هذه المرايا - على أن مفهوم الفطرة الإسلامي وإن كان الإنسان يولد على الفطرة الإنسانية، بكل

ما فيها من خير وشر، وأن أبويه يهودانه أو ينصرانه، أو يمجسانه، إلا أن مفهوم الهُوية كنتاج للوراثة، أمر غير معروف في الإسلام، كما يشير إلى ذلك الدكتور عبد الوهاب المسيري، وحينما يتبناه المتعصبون فإنهم يتبعون مفهوما غير إسلامي، فمن منظور إسلامي، لا يمكن أن يؤخذ الأبناء في الحاضر أو المستقبل بجريرة الآباء والأجداد في الماضي، فالخطيئة مثل الاستقامة لا تورّث، ولهذا نجد الخطاب القرآني يتحدث عن ذلك بوضوح وصراحة حين يقول سبحانه: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [النَّجم:٣٨] ، وللمفكر الجزائري مالك بن نبي مقاربة ذات دلالة مهمة في التعريف برجل الفطرة، ورجل الحضارة، وأن هذين الرجلين هما صانِعَا الحضارة انطلاقا وانتهاء، وأن ما عدا هذين الرجلين هو ما أسماه مالك (رجل النِصف)، وأتركم مع توصيفه فهو أبلغ وأكثر دِقة، حيث يقول عن الرجل النِصف: «فهو يحمل روح الهزيمة بين جوانحه، فقد عاش حياته دائما في منحدر المدينة، إذ هو دائما في (منتصف طريق)، وفي (منتصف فكرة)، وفي (منتصف تطور)، لا يعرف كيف يصل إلى هدف، إذ هو ليس «نقطة الانطلاق» في التاريخ كرجل الفطرة؛ ولا «نقطة الانتهاء» كرجل الحضارة، بل هو «نقطة التعليق» في التطور، وفي التاريخ، وفي الحضارة. فرجل المدينَة إذن يصدق عليه هذان الوصفان: «رجل القِلة» و «رجل النِصف»

الـذي دخـل فـي ميـدان فكـرة هـي الإصـلاح، فمسـخها (نصـف فكـرة) وأطلـق عليهـا اسـم «السياسـة» لأنـه لـم يكـن مسـتعدا إلا لنصـف جهـد، ونصـف اجتهـاد، ونصـف طريـق». وحيـن يضـع مالـك بـن نبـي رجـل المدينَـة فـي مقابـل رجـل البادية، فهـو يشـير إلـى أن رجـل المدينـة وإن كان عنـده بعـض الأشـياء، فـي حيـن أنـه لا يوجـد عنـد رجـل البادية أي شـيء، إلا أن رجـل المدينـة لـم يسـتفد ممـا لديـه مـن الأشـياء لأنـه قابـع فـي (نقطـة التعليـق) كمـا سـماها مالـك، وكـم فـي عالمنـا الإسـلامي مـن ملاييـن يعيشـون فـي هـذه النقطـة أفـرادا وشـعوبا، ورب معـدوم خيـر مـن موجـود إذا لـم يتـم الاسـتفادة منـه.

ومعلـوم شـرعًا وعقـلاً ومنطقًـا وحسًـا أن الإسـلام ديـن الفطـرة السـليمة، ورسـالة الإنسـانية فـي اعتدالهـا وقيمهـا وإنسـانيتها، فأحكامـه وتوجيهاتـه مستسـاغة عقـلاً، مبرهنـة منطقًـا، مقبولـة طبعًـا، مألوفة فطرة، مستحسـنة عُرفًـا وعـادة، وهـذا هـو الـذي عبـر عنـه قديمًـا وحديثًـا بتطابـق المنقول مـع المعقـول، حسـب وصـف د. نـور الديـن الخادمـي.

والعقـل السـليم يقبـل الأفـكار السـليمة بالفطـرة، كمـا تقبـل حاسـة الشـم الروائـح الزكيـة؛ ولكـن هـذه الفطـرة يمكـن إفسـادها بإحـدى طـرق الإغـواء التـي تتقنهـا شـياطين الجـن والإنـس. وإذا اسـتقام الفكـر سـاعد ذلـك علـى اسـتقامة حيـاة الإنسـان. وإذا كانـت قـوة الفكـر أمـرا فطريـا فـإن تحـرر الفكـر وحـب الحقيقـة أمـر فطـري ومكتسـب. وقـد

فطر الله العقول على التلاقي حول الأمور الكبرى، وعلى الافتراق عند الأمور الجزئية والفرعية.

والفكر الإسلامي يحتاج إلى إعادة النظر في مفهوم (سنن الفطرة)، الذي اقتصر الحديث فيها حول ما يتعلق بالجسد، من عناية وحق للبدن، ليخرج بفهم الفطرة إلى أفق فهم آيات النفس الإنسانية في تفردها وفي اجتماعها وعمرانها، فالربط بين الفطرة وآيات الأنفس من ناحية، وآيات الآفاق من ناحية أخرى، ربط واضح في كثير من آيات القرآن، كما تشير إلى ذلك الدكتورة/ هبة رؤوف عزت، ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصّلت:٥٣] .

والعقل المسلم وفطرته، هو في حقيقته عقل وفطرة مبصرة بنور الوحي وهدايته، ولذلك فالحقيقة لدى العقل المسلم هي حقيقة موضوعية قائمة يدرك وجودها ويدرك أبعادها، ويسعى للتفاعل السليم السوي معها ومع نواميسها وسننها، والعقل المسلم بهذا موضوعي موضوعية كاملة لا يسيره الهوى ولا تحكمه الشهوات ولا تأنف نفسه الحق والصواب، وفق تعبير د. عبد الحميد أبو سليمان، وقد جاء الوحي مستصلحا للفطر التي طرأ عليها تبديل الجاهلية.

وإذا كان العقل مظهرا من مظاهر الفطرة التي فطر الله الإنسان عليها، فإن ذلك يتطلب منا الحديث عن الفطرة الإنسانية باعتبارها

النور الإلهي، الذي أودعه الله في الإنسان، ليعرف به الحق والخير، ويميز به بين النافع والضار. والتفكير في حدِّ ذاته فطرة، والإسلام دين الفطرة، فلا يرفضه، بل يدعو دائما إلى استعماله، وعدم تعطيل طاقته، وفسح المجال الواسع أمامه.

والعلم ليس غاية في ذاته، وإنما هو وسيلة للحفاظ على فطرة الله في الإنسان حتى لا تنحرف عن العلم بوحدانية الله والاعتراف بربوبيته، والمعرفة ما هي إلا وسيلة لإقدار الناس على القيام بحق الخلافة في الأرض بإيجابية وفاعلية. فالتقاعس عن التعليم والتعلم، وانتشار الجهل هما سير ضد الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وضد مقتضيات القيام بحق الخلافة في الأرض؛ لأنها سبيل الخراب والتخلف لا العمار والرقي. وهنا ترتبط قضية العلم، بقضية الإيمان بالألوهية والوحدانية، وبقضية خلافة الإنسان في عمارة الأرض وترقيتها برباط واحد، وأي منهج للتربية لا تظهر فيه هذه العلاقة الوطيدة فهو منهج منحرف ولا علاقة له بالإسلام. د. علي مدكور.

ونجد الغبش في نظرة البعض إلى العلاقة التي تحكم حركة الفطرة في علاقتها مع العقل، كما يؤكد على ذلك أ.د. أحمد الدغشي، فما يُظن أنه فطري، فمعنى ذلك ألا عمل للعقل فيه، أو العكس، وفي هذا تسطيح مخل بحقيقة العلاقة بينهما، وإذا كان التصور السائد أن وظيفة العقل هي التفكير والاستنتاج وتقليب الأمور، ثم

التوصل إلى حكم ما، في حين أن الفطرة مُسَلّمة جاهزة، لا صلة لها بوظائف التفكير والاستنتاج، فذلك وهم لا مستند له. والمتأمل في قضايا الوحي والعقل يجد بينهما وبين الفطرة تلازما منطقيا، فإن الوحي والعقل لا يأمران إلا بما تدل عليه الفطرة، وهذا ما يبرز تماما دعوات الرسل عليهم السلام، فإنما بعثوا على أساس اللغة المشتركة بينهم وبين أقوامهم، فيما يتصل بجوهر دعوة كل واحد منهم.

وعندما يتجرد الإنسان يلتقي وحي الفطرة مع وحي السماء، لأنه لا تعارض بين وحي السماء وما هو مغروس في الفطرة السوية، لأن كلا الأمرين من مصدر واحد، ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف:٥٤] .

وفي قصيدته (دور الإنسان في التاريخ) يبرز (محمد إقبال) هذا الدور الخطير عبر محاورته الداخلية، التي يحاور فيها الإنسان خالقه وخالق الكون، في مناجاة فائقة الجمال تتحدث فيها الفطرة الإنسانية المسؤولة التي تتلقى نعم الله بطريقة إيجابية، فتتفاعل مع هذا الكون المخلوق، تفاعل الإنسان الذي يرى يد الله في كل ما خلق، ويرى كرم الله في تسخيره هذا الكون للإنسان ليبدع فيه، ويصوغ من مخلوقات الله ما يرتقي من خلاله بفطرته إلى خالقها وباريها فيقول مخاطبا ربه:

أنت خلقت الليل... وأنا صنعت المصباح

أنت خلقت الصلصال... وأنا صنعت الكوب

أنت خلقت الصحاري والجبال والغابات

وأنا صنعت البساتين والحدائق والأرائك

أنت خلقت الحجر، وأنا صنعت منه المرآة

أنت خلقت السم وأنا صنعت منه الترياق

وحب الجمال في هذا الكون أمر فطري، قائم في بنية النفس الإنسانية، ويعتبر وجوده دليلا على سلامة الطبع وصحة الذوق واستقامة الفطرة. وهذا الإحساس الفطري بالجمال والحاجة الفطرية له مرتبطة بالروح، وإذا كنا نسمي ذلك في الإنسان (فطرة) فإنا نسميه في الحيوان (غريزة). وإذا كان الحب فطرة فالتعبير عنه فن عظيم.

والنفس تنفر من المجاهرة بالسوء بطبعها، والمنكر المعلن لا يدوم، لأن الفطرة والناس يقاومونه ويدفعونه، بخلاف المنكر الذي يستتر به صاحبه، فإنه يدوم وتتوطن عليه النفس، ولهذا تبدأ الشرور سراً في الناس حتى يتطبعوا عليها، ثم يعلنون بها، فالسر أصل كل شر، وفق تعبير الأستاذ عبد العزيز الطريفي.

وقد ثبت أن الفطرة مقتضية لطلب الحق ومحبته من غير معلم ولا مرشد من الخارج، وقد يكون هناك بعض الفطر التي لا تستقل

بذلك ولا تقدر على تحصيله بمفردها، بل قد تحتاج في ذلك إلى سبب مُعِين لها من خارج ذاتها كالمعلم مثلا، إلا أن هذا السبب الخارجي لا يؤثر في الفطرة ما لم تكن هي نفسها قابلة للتأثر، ومركوزة على تقبل ذلك الأثر دون غيره، وإذا لم يعرض لتلك الفطرة ما يغيرها فإنها تستجيب لنداء كل حق وتعرف كل خير، ولهذا فقد استجابت الفطرة السليمة لنداء الرسل ولبّت دعوتهم لأن ما مع الرسل هو من مقتضى الفطرة ومغروس فيها.

وفي فطرة الإنسان منزع فردي يدفعه إلى إثبات الذات وتحقيق الفردية الوجودية، كما أن في فطرته منزعا اجتماعيا يدفعه إلى التآلف مع الآخرين لحفظ ذاته وحفظ نوعه، إذ لا يتأتى ذلك إلا بالتآلف الجماعي، كما يؤكد على ذلك ابن خلدون في مقدمته. وهذا يمكّننا من القول إن الفطرة الفردية لا تقيم حضارة ولا تحفظ إنسانية، على الرغم من كون فطرة الإنسان تريد له أن يكون حيث يعترف بوجوده، وبأهمية ذلك الوجود، إلا أن الإنجاز الحضاري والترقي الإنساني لا يبدو ظاهرا للعيان إلا في وجود الفطرة الجماعية، المنبثقة عن الفطرة الفردية التي فطر الله الناس عليها. وعلى ضوء هذا الفهم للفطرة يتأسس معنى آخر هو معنى الحرية والبراءة الأولى، فليس هنالك قهر فطري على الدين وليس هنالك بالمقابل قهر فطري على الكفر، والإنسان لا يولد برصيد

من الحسنات الأولية ولا بسجل من الخطايا القبلية، وإنما يولد على البراءة، والحسنات والسيئات تلحقه وتتعلق به بعد السعي والمكسب. والابتلاء يوقظ الفطرة، ويبرهن على القدرة على حمل الأمانة، وعلى صدق الإيمان، وبه يتميز الخبيث من الطيب.

والفطرة إنما تعمل في المحيط الهادئ الطبيعي المسترسل، بعيدا عن الضجيج والصخب. وفي هذا دليل على أن الفطرة تقتضي من الإنسان أن يعمل على تنمية الجانب الخيِّر والجانب الروحي منه، بينما تتطلب الغرائز أن يعمل على إشباع الجانب المادي فيه، والأولى ترتفع بالإنسان إلى درجات عليا من السمو الخلقي، بينما تهبط به الأخرى إلى درجات دنيا من السلوك قد تضعه في مصاف الحيوان.

ولا بد أن ندرك أن المجتمع المسلم -مهما انحرف -تظل فطرة الخير مركوزة فيه، وأن خير ما يفجر تلك الفطرة الكامنة هو التفاعل معها، لا الانزواء عنها أو الاستعلاء عليها.

والحق أن النفس واحدة في أصلها، كما يصفها أ.د. أحمد الدغشي، لكنها تحافظ على خيرها الأصيل فتنمو وتسمو، حين تجاهد صنوف الإغراء الناشئ عن البيئة، سواء انتصرت تماما (النفس المطمئنة)، أو حتى اقتربت ـ بمجاهدتها ـ نحو خيرها الأصيل (النفس اللوامة). أما إذا استسلمت فإنها تنجرُّ وراء أهواء الشيطان وتضليله، وعندها ستغرق في الانحراف، وتتسفل في درك المعاصي، وتلك هي (النفس

الأمـارة بالسـوء). وتلـك المذكـورة آنفـا مراتـب للنفـس أو حـالات، وليسـت أقسـاما أو أنواعـا، فالنفـس الإنسـانية (ذات واحـدة لهـا أحـوال ثلاثـة)؛ (سـمو) وهـو الأصـل، وتسـمى النفـس المطمئنـة، و(مقارِفـة) لبعـض الذنـوب مـع مجاهـدة تعيدهـا إلـى أصلهـا أو قريبـا منـه، وتسـمى النفـس اللوامـة، و(واقِعـة) فـي درك الانحـدار والتسـفّل، ويطلـق عليهـا حينئـذ الأمـارة بالسـوء. أي أن النفـس ليسـت أنواعـا ثلاثـة (مطمئنـة ولوامـة وأمـارة بالسـوء)، لكنهـا مراتـب أو أحـوال للنفـس صعـودا أو هبوطـا، أو مراوحـة بيـن هـذا وذاك.

والتصـور الإسـلامي يؤكـد علـى فكـرة المحافظـة علـى نقـاء الفطـرة وسـلامتها، علـى أسـاس أنهـا هـي التـي تحفـظ علـى الإنسـان سـلامة قلبه، وعلينـا أن ننتبـه هنـا إلـى أن نـوع الحيـاة المنطلقـة مـن مثـل ذلـك (القلـب السـليم) تختلـف اختلافًـا يـكاد يكـون كليًـا عن نـوع الحيـاة التي طُمـس فيهـا علـى القلـب، فالإنسـان الـذي صفـا قلبـه واسـتقامت فطرتـه يكـون توكلـه علـى الله لا علـى نفسـه أو الآخريـن، ويكـون أنسـه بـالله سـبحانه، فيعيـش حيـاة مختلفـة وجوديًـا عـن غيـره مـن مرضـى القلـوب، فحياتـه الداخليـة مطمئنـة هادئـة، لا تفجعـه الفواجـع ، ولا تطغيـه النعـم ، وإنمـا هـو يعيـش بيـن الصبـر والشـكر علـى مسـتوى يسـتحيل أن يتوفـر لغيـره ممـن كبـرت الدنيـا فـي عينـه، أو ممـن يصـاب بالجـزع والنكـد إذا فقـد مـن دنيـاه شـيئًا ولـو قليـلاً، ولا يأبـه بضيـاع أخـراه بكليتهـا.

وإذا كانت الأمة التي حدودها العقيدة أبقى من الدولة التي حدودها الأرض والجغرافيا، كما يشير إلى ذلك الأستاذ/ عمر عبيد حسنه، فإن العقيدة أقوى من السياسة، والقرآن أبلغ أثراً وتأثيراً وعمقاً من السلطان، والمجتمعات والشعوب أقوى وأبقى من الحكومات، والمبادئ والقيم أقوى من روابط الفلسفات، وجوهر الفطرة أطهر من عرض الشهوة والغريزة.

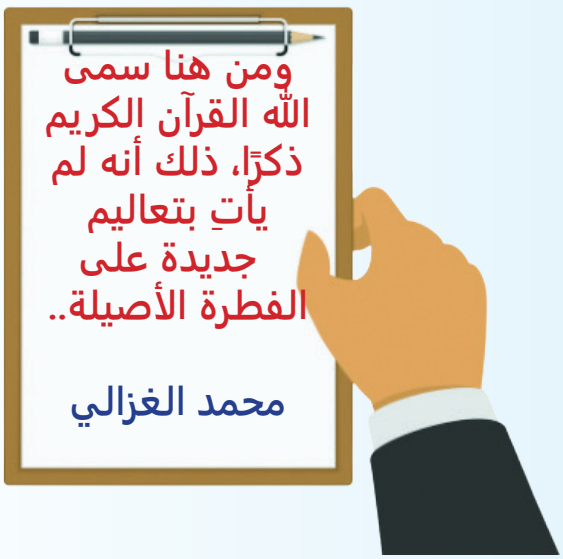

مرآة الشريعة... تناغم وانسجام مع الفطرة

من خلال عشر وقفات مع المرايا الفطرية، خلصنا إلى أن الإسلام هو دين الفطرة، وما دام الأمر كذلك فقد جاءت تشريعاته لتكون متناغمة ومنسجمة مع الفطرة، وهذا ما سنزيده توضيحا وبيانا من خلال أربع وقفات، ستكون هذه الوقفة أولى هذه الوقفات.

فالإسلام -وفق تعبير المفكر علي عزت بيجوفيتش-لا يتعسّف بتنمية خصال لا جذور لها في طبيعة الإنسان وفطرته، إنه لا يحاول أن يجعل منا ملائكة، لأن هذا مستحيل، بل يميل إلى جعل الإنسان إنسانًا. وفي الإسلام قدْرٌ من الزهد، ولكنه لم يحاول به أن يدمِّر الحياة أو الصحة أو الفكر أو حب الاجتماع بالآخرين أو الرغبة في السعادة والمتعة. هذا القدْر من الزهد أُريد به توازنًا في غرائزنا، أو توفير نوع من التوازن بين الجسم والروح. بين الدوافع الحيوانية والدوافع الأخلاقية. وهكذا ـ من خلال الوضوء والصلاة والصيام وصلاة الجماعة والنشاط والملاحظة والكدح والتوسط ـ يواصل الإسلام عمل الفطرة في تشكيل الإنسان.

والواقعية الإسلامية ترى الإنسان كما هو، وترى الأشياء كما هي، فلا تغلو بالحديث عن مكامن الشر في الإنسان أو مكامن الخير فيه. وقد جاء الدين القيِّم ليبعث الحياة بمكامن الخير الفطرية في البشر في مواجهة غرائزهم وما ران على قلوبهم وشوّه فطرتهم

من انفلات لنوازع الطغيان والركض وراء الهوى والظلم والفحشاء. والأصل في النفس الإنسانية أنها قابلة للتعلم. لأن العلم والحكمة كامنان أصلا في نفس الإنسان، كما يشير إلى ذلك الإمام أبو حامد الغزالي في كتابه ميزان العمل، فهما مركوزان فيها بالقوة في أول الفطرة ولا بد من سعي في إبرازهما بالفعل، كما لا بد من سعي في حفر الآبار لخروج الماء.

وأجلّ العلوم ما دلت عليه الفطرة، وأكّدته الشِرعة، وقد جاء الوحي مستصلحا للفطر التي طرأ عليها تبديل الجاهلية. فالفطرة كما شبهها الأستاذ عبد العزيز الطريفي كالإناء الذي يوضع فيه الماء، إذا ثُقِب أو صدِع أو بُسط، لن يستقر فيه الماء، وهكذا حال الوحي الرباني مع الفطرة المتغيرة.

ولا تستقيم الفطرة ولا تتوازن إلا حين تهذب الخطوط كلها في ذات الوقت، كالخوف والرجاء، والفردية والجماعية، والدنيا والآخرة، وتغذى بالغذاء الصالح السليم، وهل هناك غذاء أجلّ لها وأنفع من منهج ربها وشريعته، الذي أوجد في الإنسان الفطرة، وأنزل ما يوافقها من الشِرعة؟!

وهذا يجعلنا نؤكد على الفهم الذي توصل إليه الدكتور جعفر شيخ إدريس وفنّد فيه بعض النظريات الغربية، عندما أشار إلى قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ

لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الرُّوم:٣٠] من أن تأكيد الإسلام على ثبات الفطرة وخيريتها، يجعلها هي السابقة على الانتماءات الدينية والثقافية والحضارية. فليست الثقافات والحضارات هي التي تصنع فطرة الإنسان وتحدد سلوكه وطرائق تفكيره، كما تقول بذلك بعض النظريات الغربية، وإنما فطرته هي المعيار الذي يمكّنه من الحكم على تلك الثقافات والحضارات، فما وافقها كان موافقا للإنسان وسببا لسعادته وما خالفها كان من أسباب شقائه.

وإذا كان الدين أمر إلهي، فإن التديّن فطرة بشرية (فأبواه يهودانه أو ينصرانه ...) والتوسط منهج إسلامي لا إفراط ولا تفريط. وإذا أراد الإنسان الانسجام مع الكون، فليس بحاجة إلا إلى الانضباط بالقانون نفسه (الفطرة)، التي استودعها الله ـ سبحانه وتعالى ـ فيه، من خلال الانضباط بقانون الله المسطور. وبهذا تكون الصورة متكاملة متناغمة يتوافق فيها مستودع الفطرة مع الكون (المنظور) والكتاب (المسطور)، ذلك أنها تصدر عن قرار واحد وقانون واحد؛ فعندما نوفق في العمل بالقانون المسطور نأتي الكون المنظور بما أمر خالقه أن نأتيه به، وهذا مبعث فعالية الثقافة السننية وتأكيد على أساسها المعرفي الإيماني.

والإسلام لا يطلب أن تنفذ أوامره الشرعية تنفيذا آليا وبدون تعقّل أو تدبّر، كما يؤكد على ذلك الدكتور محمد الجليند، بل لا بد

قبل كل شيء أن تسري أوامره إلى أعماق الضمير فيتشرّبها القلب، ثم تصدر من القلب على أنها أوامر ذاتية انبعاثية، لأن أول خطوة في امتثال الواجب العقلي هو الإيمان بوجوده وعدالته، وإذا لم يذعن الإنسان لأوامر الشريعة امتثالا لوجوبها في ذاتيتها على أنها حق وعدل كان العمل كله هباء عند الله وفي نظر قانون الأخلاق، فالعقل بريد الشرع الذي لا سبيل إلى امتثال الأوامر والنواهي إلا عن طريقه، وهذا من تكريم الله للإنسان عموما، ومن تكريمه سبحانه للعقل على وجه الخصوص.

وفي زمن الفتن، التي يمتحن الله بها بني البشر، ليَميز الملتزم بهديه وشرعه من التارك لهما، يميل كثير من الناس إلى (منهج السلامة)، وتميل الصفوة إلى (سلامة المنهج)، والميل إلى منهج السلامة هو تحلل من أوامر الشرع ونواهيه، واتباع للنفس وهواها، في حين أن الميل إلى سلامة المنهج إصرار على التزام شرع الله مهما كانت المغريات أو الإكراهات، وهذا هو حال الصفوة الذين يرون في سلامة المنهج سبيل النجاة، وإن رأى غيرهم ممن يحبون منهج السلامة أنه طريق الهلكة.

وتكاليف الشريعة الإسلامية موضوعة لتحقيق مقاصد الشارع الحكيم في قيام مصالح الناس في الدين والدنيا معاً، وقد رُوعيَ في كل حكم منها «إما حفظ شيء من الضروريات الخمس... وإما حفظ

شيء من الحاجيات... وإما حفظ شيء من التحسينيات»، واستقراء تفاصيل الشريعة يؤكد أن أحكامها بُنيت على عِلَلٍ ومَرامٍ تَرجع كلها إلى الحفاظ على مصلحة الخلق ودَفْعِ المفسدة عنهم، ونقطة الانطلاق في هذا هي التسليم الجازم بكون الشريعة إنما وضعت لجلب المصالح للعباد ودرء المفاسد عنهم في الدنيا والآخرة، ليتحقق في الأخير مقصد الشارع الأسمى من خلق الإنسان واستخلافه وتكليفه وهو إخلاص العبودية لله، وبِلُغة الشاطبي: «إخراج المكلّف من داعية هواه حتى يكون عبداً لله اختياراً كما هو عبد لله اضطراراً».

وهذا يتطلب ما أسماه الأستاذ/ جمال أنعم (بالحضور الخاص)، ففي القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف نجد إلحاحا على إنكار امتداح الذات والعُجْبُ والاغترار بالنعمة والعمل، فالخطاب الإسلامي يستهدف تشذيب هذا النزوع وكبحه، ويوجهنا هذا الخطاب: فلا تزكّوا أنفسكم، ولا تدّعوا الخيرية، ولا تتفاخروا بكل ماهو عرضي وثانوي، ودعوا خيريتكم تتحدث عن نفسها كفطرة، دعوا صدقكم يفصح عن نفسه كسليقة، تواضعوا يرفع الله قدركم أكثر، لا تقطعوا الطريق على أنفسكم لتحقيق الكمالات بادعاء الكمال المطلق لأن نقصكم الدائم هو آيتكم في طلب الازدياد، هو شرط وجودكم الحي الموّار يبقيكم في حالة توتر وقلق تدفعكم للبحث عن الارتقاء والسمو، إنّ الشعور بالكمال المطلق لدى الإنسان يعني موته

التـام.

الحضـور الخـاص أن تختـار النفـس مـا اختـاره الله لهـا عـن رضـا واقتناع علـى مسـتوى الفـرد الواحـد، ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب:٣٦]، وعلـى مسـتوى الأمـة، ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء:٦٥] ، وهـذا يتمثـل فـي الأخـذ والتـرك، والانطـلاق مـن الشـريعة والرجـوع إليهـا جملـة وتفصيـلا، انطلاقـا ورجوعـا محمـلا بالفهـم والوعـي والرضا والاقتنـاع والطمأنينـة، ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ العِقَابِ﴾ [الحشر:٧]، فهـو أخـذ بقـوة وتـرك بيقيـن.

وإنـكار الـذات، الـذي يخـرج الإنسـان مـن داعـي هـواه، هـو نفـي لمـا هـو عرضـي وزائـل وسـطحي وممـرض مـن دواعـي النفـس، وإثبـات لمـا هـو جوهـري وبـاقٍ، ولـكل مـا هـو أصيـل ونبيـل وراسـخ، لـكل مـا يجسـد الحضـور الخالـص، وهـل هنـاك مـرآة لـذات الإنسـان وفطرتـه أصفـى من مـرآة شـريعة ربـه، التـي تعيـد ترتيـب ذات الإنسـان، وتتناغـم وتنسـجم مـع فطرتـه.

والله هـو الكمـال المطلـق ويتجلّـى فينـا كمالـه سـبحانه بقـدر اتصالنـا بـه، وامتثالنـا لشـرعه، وحياتنـا بـه هـي تمـام الوجـود المكتفـي بذاتـه، الغنـى عمـا سـواه، القـوي والعزيـز بـه سـبحانه.

وغياب المنهج وفقدان الضوابط الشرعية يؤديان إلى الفوضى الفكرية في الحياة العلمية والثقافية، وهو ما يتمثل في ضياع المقاييس، وكثرة التكرار والاجترار والتبعثر، وضياع الرؤية الشاملة، وعدم إبصار الأولويات، وتوالي النكسات الفكرية والسياسية، والتجاوز في دخول الساحة الفكرية، ومحاولة المساهمة فيها ممن يحسن ذلك وممن لا يحسنه، والاجتراء على القول في الدين وتفسير مقولاته ونصوصه بلا فقه ولا علم. فلكل علم منهجه وأهله وضوابطه.

والمنهج الرباني يمنح المسلم الأصول والأسس والغايات الكبرى، ويمنحه إلى جانب ذلك ما يشكِّل به العقل المفتوح الذي يملك استعدادا دائما لقبول الجديد والنافع، وما تبرهن التجارب على صدقه وصوابه، ما دام لا يتنافر مع الإطار الإسلامي العام، ولا يخالف نصوصا أو أحكاما قطعية.

وقد تكون إشكالية الجمود والعجز والتقليد ـ وفق تعبير الأستاذ عمر عبيد حسنة- تكمن في عدم التفريق بين قيم الدين ونصوص الدين في الكتاب والسنة، وبين اجتهادات البشر، والتوهم بأن الاجتهادات المتولدة من القيم والنصوص هي من المقدسات، ومراجعتها من المحرمات، وأن المسّ بها هو مسٌ بقيم الدين وأصوله، وأن هذه الاجتهادات معصومة ومتيقنٌ من صوابيتها كقيم الدين، أليس مرجعيتها قيم الكتاب والسنة (؟!) فلماذا لا تستمد قدسيتها وعصمتها

من عصمة القيم الثابتة الصحيحة في الكتاب والسنة (؟!).وهنا مكمن الخطر كله، وذلك عندما تلتبس الذات بالقيمة، وقيم الدين بصور التدين، ونص الشارع بفهم الشارح.

والأصل في النصوص الشرعية أنها لا تتعارض، لأن الحق لا يعارض الحق، فإذا افترض وجود تعارض فإنما هو في ظاهر الأمر لا في الحقيقة والواقع، والمنهج الإسلامي هو تعامل مع الأسباب القائمة بما يتفق مع الشرع وتسليم لحكم الله وتدبيره مع ذلك وبعد ذلك.

فالله الذي أنزل الأسباب (الشرعية)، هو الذي أوجد الأسباب (المادية)، والأخذ بهما من الإيمان بالله. لكن الذي لا خلاف فيه كما يؤكد على ذلك الأستاذ عبدالعزيز الطريفي هو: أن الله لا ينصر أحدا ولو كان نبيا من أنبيائه إلا بسبب كوني (مادي) ولو كان يسيرا، وهذا مقتضى إحكام الله للكون وعدم عشوائيته ودورانه في فلك سببي دقيق لا يخرج عنه، ولهذا لم يفلق الله لموسى عليه السلام البحر إلا بضرب العصا، والله قادر على فلقه بلا عصا، ولم يسقط التمر على مريم بنت عمران إلا بهزّ جذع النخلة، وهو قادر على أن يدنيه بلا هزٍّ، وسدد الله رمي النبي ﷺ فلم يخطئ، ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال:١٧]، والله قادر على هزيمة المشركين بلا رمي، ولكن

الأسباب لا بد من وجودها، وربما تدِقُّ جدا حتى يظن الإنسان في الدنيا أن لا وجود لها في حادثة بعينها، وهي موجودة ولكنها خفية. وإذا قويت الأسباب (الشرعية)، عوّض الله بها ضعف الأسباب (المادية الكونية)، ولكن لا تغني الأسباب الشرعية ولو اجتمعت، عن الأسباب الكونية إذا انتفت، فإن حدوث الحوادث في الكون بلا أسبابها يقدح في إحكام الكون، وقد يغترّ الناس بما يجري على أيدي بعض الأولياء ويظنونهم آلهة، ويعتقدون أن لهم القدرة للتصرف في هذا الكون بغير الأسباب التي وضعها الله فيه، وهذا من الخطأ الذي قد يؤدي إلى الشرك بالله، فلا يُقدِّر الحوادث بلا سبب إلا موجدها بعد العدم، وهو الله. والظالم لا يُنصر، وإن غَلبَ لا يتمكّن، فالله لا يُمكِّن للظالم وإن جعل له الغلبة، وقد يتمكّن الظالم على من هو أشد ظلما منه عند غياب العادل، فالله يمكن للأعدل والأخف ظلما.

والإنسان المؤمن يتحول إلى طاقة فذة في ميدان الفعل والإنجاز، وإلى قدرة مذهلة في مجال العطاء والإبداع، وإلى شعلة متوهجة يمتد إشعاعها إلى أعماق الذات فيضيئها ويدفعها، وإلى آفاق العالم فتتبين ملامح الطريق، ليس ثمة تفتت في الطاقة، ولا غموض في الطريق، ولا ضياع للأهداف، لأن الطريق واحد، والمنهج واحد، والغاية واحدة.

وأرواحنا ستظل فارغة، وذواتنا ممزقة، وأعمالنا متناقضة ومتضاربة،

ما لم نوحّدها عن طريق الإيمان، وما لم يتحول إيماننا إلى طاقة قادرة على تخليصنا من أهواء أنفسنا وسيئات أعمالنا، وإذا كانت الذات الإنسانية طبقات، بعضها فوق بعض، فإن «أعمق تلك الطبقات هي طبقة الروح ذلك البعد الفسيح المدى، الشفاف جدا، والمبهم جدا، والمهم جدا». وفق تعبير د. عبد الكريم بكار.

والإنسان الذي خلقه الله وصوره، لا يكون إنسانا حقا، إلا حينما يستقر في نفسه المنهج الذي وضعه الله له، وحينئذ تلتقي الصورة الظاهرة مع معناها الحقيقي المناسب، أو يلتقي الظاهر الذي هو من صنع الله، مع الباطن الذي يمثل منهج الله وفطرته في الإنسان، فإذا الظاهر والباطن وحدة تامة الانسجام، وعندها تكتمل إنسانية الإنسان، صورة ومعنى، ظاهرا وباطنا.

وقد جعل الله كلاً من العقل والنقل لا يرى أحدها ذاته إلا في مرآة الآخر، كما يقول أبو حامد الغزالي، «فالوحي لا يخاطب إلا بالعقل، وبانعدام العقل أو غيابه يفقد الوحي معناه، وكذلك العقل عندما ينتهي إلى السؤال الذي لا سؤال قبله، لا يجد النور إلا في الوحي». وتشريع كل أمة هو من خصائصها، وله ارتباط وثيق بأخلاقها وتقاليدها وثقافتها، وما هو إلا مظهر من مظاهرها الاجتماعية، ومرآة لحالتها الاقتصادية والسياسية. والعزة عند الفيلسوف محمد إقبال ليست فكرة ساذجة من الاستعلاء على الغير، أو الانكفاء على

الـذات، بـل هـي مفهـوم مركّـب مـن العلاقـة بالخالـق وبالمخلـوق.

وكل أشـكال القبـح هـي علـى مسـتوى مـا موصولـة بمعنـى مـن معانـي المعصيـة، كمـا يؤكـد علـى ذلـك د. عبـد الكريـم بـكار، فالجهـل والظلـم والكسـل والفوضـى والاسـتبداد وقطـع الأرحـام والقـذارة ومـا شـاكلها، عبـارة عـن بقـع سـوداء تشـوه مـرآة حياتنـا، وتحـول دون انعـكاس المظاهـر الجماليـة عليهـا، وواجبنـا إقصاؤهـا عـن مجتمعاتنـا إلـى أبعـد حـد ممكـن.

وطبائـع النفـوس تؤثـر فـي قناعاتهـا، فمـن جبلـه الله علـى الشـجاعة، يظنُّ الإقـدام هـو الحـق، ومـن جَبَلَـه الله جبانـا، يظـن أن الركـون والسـلامة هـي الحـق، وقـد لا يوافـق الحـق الطبـع، فيجـب علـى الشـجاع مجاهـدة نفسـه ليرجـع إذا أمـره الله بالرجـوع، ويجـب علـى الجبـان مجاهدة نفسـه ليُقـدم إذا أمـره الله بالإقـدام. الأسـتاذ/ عبـد العزيـز الطريفـي.

وحقيقـة التـوكل والدعـاء ونفعهمـا إنمـا تكـون بعـد أداء العمـل وبـذل الجهـد والسـعي والكـد والاجتهـاد، ومـع ذلـك وقبلـه، ويقصـد بهمـا طلب العـون مـن الله بشـأن كليـات أمـور الكـون التـي لا ندركهـا، ولا يسـعها علمنـا، ولا سـيطرة لنـا عليهـا، والله وحـده يملـك أمـر علمهـا ومقاليـد تصريفهـا.

وسـؤال الوالديـن الدعـاء، أو مـن يتوسـم فيـه النـاس الصـلاح مـن أهليهـم وأهـل جوارهـم، أمـر مسـتحب، إذا تـم بتلقائيـة وبـروح التواصـل والبـر

والمودة، لا بروح الدجل وادعاء مكانة هي بمنزلة التحكم في رحمة الله.

ومن المهم، حسب تعبير د. عبد الحميد أبو سليمان، ألا يكون طلب الدعاء ممن يتوسم فيه الصلاح أداة لإعفاء الذات من التوبة، ومن العزم على الصلاح والتقرب إلى الله حتى يكون المرء أهلا للاستجابة. فطلب الدعاء من الصالح يجب أن يكون مصحوبا ببذل الجهد لإصلاح نفوسنا، فيكون دعاؤه وسيلة إلى مزيدٍ من التقرب إلى الله، وليس وسيلة للتهاون وغيبة الوعي.

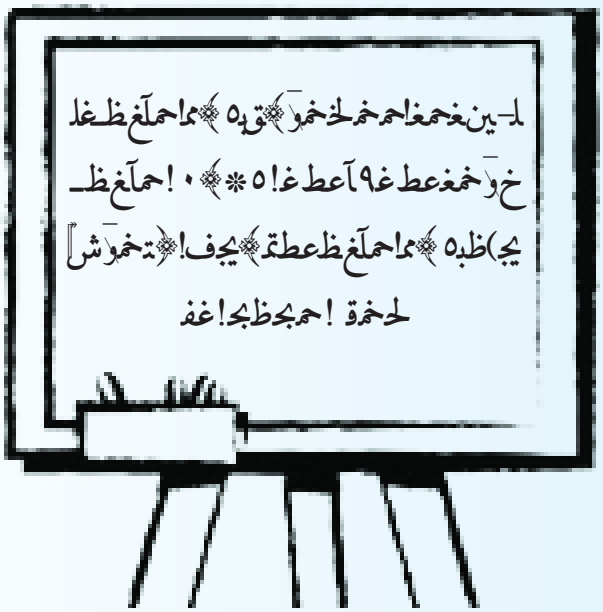

المرايا المجتمعية... مسايرة ومغايرة وإبداع

الإنسان لا ينبت وينمو، بل ولا يصبح الإنسان إنسانا، إلا من خلال تكوينه وصياغته ضمن مجتمع، فالإنسان يمثل معادلتين: (بيولوجية وثقافية)، هذه هي العقدة الجدلية التي تنتظر الحل، كما يحددها د. خالص جلبي، وهي: أن يَرقى الإنسان بالمجتمع، ويَرقى المجتمع بالإنسان، أن يخلص الإنسان للمجتمع، ويحافظ المجتمع على الفرد، أن يحمي الفرد المجتمع من القوارض الاجتماعية، وأن يُسبغ المجتمع أمنه على الفرد، أن يعتزّ الفرد بالمجتمع الذي ينتمي إليه، ويتألق المجتمع بالدرر الفردية، التي تشكل تركيبه، أن يَصِحّ الفرد بصلته بالمجتمع، ويتعافى المجتمع بأفراد نظيفين، أن يتحول المجتمع إلى ساحة تعاون وإيثار، وأن يحب الإنسان أخاه الإنسان، وأن لا يشعر الفرد بالقرف والكره من محيطه، وأن ينشط المجتمع بنشاط الأفراد، وأن يتصرف الفرد من خلال الشعور بالمسؤولية وحسن الانتماء والمبادرة الفردية، في الدفاع عن المجتمع وحمايته، والموت دونه، إن تطلّب الأمر، وأن يشجع المجتمع الأفكار الجديدة، والمبادرات المخلصة، وألا يقتلها في مهدها ويخنقها قبل أن ترى النور.

والمجتمع هو الذي يصنع الإنسان، فالإنسان في معادلته البيولوجية يأخذ الجينات من والديه، أما الثقافة فهذه يمتصّها من المجتمع، الذي يختزل تجارب الجنس البشري، ليحقنها إياه في سنوات عمره

الأولى، لينمو من خلالها، ومن خلال هذه الخبرة، يكتسب مقعده الجديد، في سلم الوجود، حيث يمثل قمة ما أبدعته الحياة.

إن ما يسمى بالذات ليس إلا تجليا لثقافة المجمع في الوجدان الفردي، ومن هنا فإن الشخصية الفردية لكل إنسان هي عبارة عن مجموعة الخصائص المعنوية التي رُبِّيت داخلها بنيته الاجتماعية، حسب وصف د. علي شريعتي.

وفي الإشارة النبوية (يولد المولود على الفطرة ...) تأكيد بصريح العبارة إلى فعالية التأثير الذي تمارسه البيئة المتمثلة في تقاليد الآباء وسلطة المجتمع في توجيه سلوك الأجيال الناشئة وإخضاعها لما تعارفت عليه تلك التقاليد، وهو تأكيد صريح ـ أيضاـ في أن المولود البشري يولد أول ما يولد وهو مستقل عن المجتمع الذي يوجد فيه وأخلاقه وعاداته، وأن هذه العادات أمر طارئ في حياته.

إن خضوع الإنسان لتقاليد بيئته، الحسن منها والسيء، يجعل منه كائنا سلبيا يعيش في مجتمعه يتأثر به ولا يؤثر فيه، يتلقى عن المجتمع عاداته وتقاليده ولا يملك إزاءها إلا الخضوع والاستلام (مسايرة سلبية)، وفي هذا الموقف ضياع لمسؤولية الإنسان إزاء مجتمعه وإهدار لمكانة الإنسان باعتباره كائنا فعالا بالدرجة الأولى.

والتكامل بين الفرد والمجتمع ضروري، فالفرد له كيانه المحترم، وذاته المميزة، وحقوقه الثابتة، ولكن كل ذلك في نطاق مصلحة

المجتمع الذي ليس له أن يذيب شخصية الفرد على حساب مصلحة المجتمع. والفرد في المجتمع مرفوع فيما يجيد وفيما يحسن، ومرفوع عليه غيره فيما لا يجيده ولا يحسنه، إذا فكل فرد فاضل في جهة ومفضول عليه في جهة أخرى. فالمفضول عليه يسخر الفاضل لخدمته.

وما من شك أن الناس لا يتأثرون بشيء كما يتأثرون بالبيئات والمجتمعات التي يعيشون فيها، حسب تعبير د. عبد الكريم بكار، والمرء يكتسب من مجتمعه عناصر جوهرية في تكوين ذاته، مثل المشاعر واللغة ومعايير الخير والشر، وما هو لائق وما هو ليس بلائق.

ويتشبع المرء بثقافة المجتمع الذي يعيش فيه، وتتحول المفاهيم الثقافية إلى عادات ومسلمات يخضع لها الفرد دون كثير نقاش، وكثير منها يظل خارج منطقة الوعي، فلا يوجه لها أي نقد أو تقويم، وفي هذه الحال على الإنسان أن يسلك سلوك (المغايرة)، فيأخذ الحسن ويترك القبيح، حتى لا يكون (إمّعة) كما شبهه الرسول الأعظم صلوات ربي وسلامه عليه. والإنسان ليس فردا مطلقا، بل هو جزء من مجتمعه، ولكن على الإنسان أن يتعلم ويدرك أن المجتمع يسبق الفرد دون أن يلغيه.

ويتبادل المجتمع والفرد التأثير في بعضهما، في عملية مستمرة،

تختلف في قوة التأثير بين هذا وذاك، فللمجتمع - كما ذكرنا في الوقفة السابقة - تأثيره الكبير على الفرد، ولكن هذا لا يعني عدم تأثير الفرد على المجتمع، وإلا لما تغيرت العادات والتقاليد والأعراف من جيل إلى جيل، وقد يصل الحال في لحظة من اللحظات أن يعتبر الفرد نفسه المتن وأعضاء مجتمعه الحواشي، وهو الأصل وأعضاء مجتمعه الفرع، وهو المعيار والمقياس وأعضاء مجتمعه تابعون له ومقلدون لسلوكه.

ولنتأمل ما قاله أحدهم في لحظة من لحظات الصحو القليلة: انتبهتُ ذات يوم وأنا أقود سيارتي إلى واحدة من القواعد النفسية والأخلاقية العامة التي يشترك فيها أكثر الناس: فإذا حجزتني سيارة بطيئة أمامي، قلت: يا لهذا السائق البليد! ... وإذا تجاوزتني سيارة مسرعة من ورائي، قلت: يا له من سائق متهور! إننا نعتبر أنفسنا «النموذج» الذي يُقاس عليه سائر الناس، فمن زاد علينا فهو من أهل (الإفراط)، ومن نقص عنا فهو من أهل (التفريط).

فإذا وجدتَ من ينفق إنفاقك فهو معتدل كريم، فإذا زاد فهو مسرف، وإذا نقص فهو بخيل، ومَن يملك جرأتك في مواقف الخطر فهو عاقل شجاع، فإذا زاد فهو متهور، وإذا نقص فهو جبان ... وهكذا. ولا نكتفي بهذا المنهج في حكمنا على أمور الدنيا بل نوسعه حتى يشمل أمور الدين، فمَن عبد عبادتنا فهو من أهل

التقوى والإيمان، ومن كان دونها فهو مقصر، ومن زاد عليها فهو من المتنطّعين.

وبما أننا جميعاً نرتفع وننخفض، ونتقدم ونتأخر، ونتغير بين وقت ووقت وبين عمر وعمر، فإن هذا المقياس يتغير باستمرار. وكم يعاني المجتمع من أمثال هؤلاء، خاصة عندما يكون هؤلاء هم المتنفذون وأصحاب القرار.

وعلى الرغم مما يتمتع به عالم الطفل من الصفاء والنقاء والفطرة والنفس السوية ابتداءً والمرآة شديدة الحساسية، الخطيرة واللاقطة، بقدر ما تعظم المهمة والمسؤولية في كيفية التعامل معه، وخطورة ما يقدم له، وخطورة الخطأ في وضع البذور الغلط في تربة الطفولة، ففي الطفولة تزرع بذور مستقبل الحياة السلوكية، كما تزرع بذور مقومات الرجولة.

فحين نأمر الأطفال بشيء لا نفعله، أو حين ننهاهم عن شيء لا نتورع عن الوقوع فيه، فإنهم يقولون في أنفسهم: انظروا في المرآة، وكأنهم يرددون الآية القرآنية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ(٢) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢ - ٣] ، ولذلك لا نستغرب من أبنائنا أن يشبهونا في بعض نواقصنا وعيوبنا (فمن شابه أباه فما ظلم)، ولهذا يمكننا أن نردد مع الدكتور مسلم تسابحجي، في كتابه القيم: (أبناؤنا جواهر ولكننا حدادون) قوله:

م!ساكين أنتم يا أبناءنا، ما أكثر ما نعاقبكم بسبب أخطائنا.!

مساكين أنتم يا أبناءنا ما أكثر ظلمنا لكم بسبب تقصيرنا!.

مساكين أنتم يا أبناءنا ما أكثر ما نعاتبكم على ما تعلمتموه منا.!

مساكين أنتم يا أبناءنا ما أكثر ما نلومكم على أشياء نفعلها نحن أكثر منكم!.

مساكين أنتم يا أبناءنا كم مرة نضغط عليكم للقيام بأمور فشلنا نحن في تحقيقها!

مساكين أنتم يا أبناءنا كم مرة نكسر المرآة ونرتاح من رؤية الخطأ المعشش فينا. !

مساكين أنتم يا أبناءنا كم نحملكم أوزارنا ثم إنكم بعد ذلك كله تحبوننا وتصفحون عنا وترحموننا.!

وعالم الطفولة في المجتمع يقابله عالم المرأة، الذي لا يسلم من بعض الغبن والتهميش، فتجد أن عالم المرأة تحكمه الأعراف والعادات والتقاليد، بينما يغيب الدين والإنسانية في كثير مما يحكم عالم المرأة في المجتمع، ولذا تختلف وجهات النظر حول هذا العالم، فيُنظَر للمرأة نظرة يكتنفها التهميش، وتحكمها الريبة والشك، وقليلون هم من يتحاشون هذه النظرة وذلك الحكم، وهؤلاء هم الكرماء كما سماهم خير الناس لأهله ﷺ: (لا يكرمها إلا كريم

ولا يهينها إلا لئيم). وقد أحسن الشاعر فيما جادت به قريحته، في مقابلته بين وجهات نظر مجتمعه لعالم المرأة فقال:

حسب المرأة قوم آفةً ... من يدانيها من الناس هلك

ورآها بعضهم أمنيةً ... ملك النعمة فيها من ملك

وتمنى معشر لو نبذت ... وظلام الليل مشتد الحلك

وتمنى غيرهم لو جعلت ... في جبين الليث أو قلب الفلك

وصواب القول لا يجهله ... عاقل في مسلك الحق سلك

إنما المرأة مرآة بها ... كل ما تنظره منك ولك

فهي شيطان إذا أفسدتها ... وإذا أصلحتها فهي مَلَك.

إن احتقار المجتمع لفئة من الفئات أو طبقة من الطبقات يغيّر نظرتها لنفسها، فتصبح دونية، وتتصرف بناء على ذلك. والتهميش يلحق أفدح وأشد الأضرار بالفئات المهمشة، لكنه إلى جانب ذلك يلحق الضرر بالجهة التي تمارس التهميش، وذلك لأن من غير الممكن للمهمشين أن يدينوا بالولاء للمجتمع الذي يضطرهم إلى أضيق السبل، ويحشرهم في الزوايا، كما إنهم لا يتفاعلون مع قضاياه وطروحاته، ولا يبدون أي حماسة للقيام بأي مبادرات إصلاحية لمعالجة مشكلاته.

وقد يسعى المهمشون - كما يؤكد على ذلك الدكتور عبد الكريم بكار - إلى تشكيل تكتلات لتخريب المجتمع لأن من طبيعة الأقليات

والطوائف أن تتخذ من خصوصياتها الثقافية والعرقية أرضية مشتركة لحماية نفسها، وللثأر من المجتمع الذي ظلمها وهمّشها... وللحديث بقية.

وليس من السهل على الإطلاق أن يتخلى المرء عن مجتمعه، لأنه إن فعل ذلك فسوف يشعر الأهل والأقارب والأصحاب أنهم مهددون ومنبوذون، ذلك أن عاداتنا هي جزء من هويتنا الاجتماعية، ولكي يحدث التواصل بين الإنسان ومجتمعه فيجب أن نسمح لأنفسنا بأن نكون مرئيين، بمعنى أن نخرج من دائرة الغموض والتخفي حتى يتعرّف علينا الآخرون بيسر وسهولة، فنألف ونؤلف.

إن النفس مرآة المجتمع، أو بعبارة أخرى: نفسك صدى ما يعتقده الغير فيك وما يعطونك من دور في الحياة الاجتماعية. فأنت، من أنت؟ أنت تشعر بذاتك وتقول (أنا) طبق ما يتصور الناس عنك، أو بالأحرى: ما تحس أنت من تصور الناس فيك.

والإسلام حين يتعامل مع الفرد ومع المجتمع إنما يتعامل معهما وهو يخلع عليهما مثالياته وواقعيته، لتسري قيمه ومثله على الجميع، دون استثناء، فلا هو ينظر إلى الإنسان وحيدا بمعزل عن مجتمعه، ولا هو يرى المجتمع متجاهلا لأفراده يمحو شخصياتهم، وينفي بشريتهم، وإنما هو القسط في النظرة، وفق تعبير د. مصطفى منجود.

« والعلاقة الروحية بين الله وبين الإنسان هي التي تلد العلاقة الاجتماعية وهذه بدورها تربط بين الإنسان وأخيه الإنسان»، كما يقول مالك بن نبي: والآية القرآنية التالية: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾ [هود:٦١] ، توضح بجلاء أن العمران لا يأتي إلا بتآلف المجتمع وتوزيع الأدوار وتكاملها فيه، وما دامت الفطرة الاجتماعية مغروسة في الإنسان، وبموجبها لا يستطيع العيش بدون أخيه الإنسان أو بالتعبير الخلدوني ما دامت مفضية إلى العمران، وبناء على ذلك فإن العمران لا تصنعه إلا الأيدي التي تسعى إليه، ولذلك استحقت أن تكون وارثة فيها، كما جاء في الحديث (من أحيا أرضا ميتة فهي له)، موطأ الإمام مالك. لا الأيدي التي تسعى للعمران وتريده وفق الهوى فتقلبه وينقلب بها إلى تخريب وإفساد، ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الخِصَامِ﴾ [البقرة:٢٠٤] .

ولا شك أن شرف المسؤولية من أسمى المقاصد في بناء المجتمع والمحافظة عليه، والفرد في مجتمعه عضو إيجابي وفاعل، وقد أشار المفكر الفلسطيني منير شفيق في كتابه (الإسلام في معركة الحضارة) بمرارة وأسف، إلى إمكانية أن يفقد الفرد والمجتمع في لحظة من اللحظات هويته واستقلاله، ويجنح للتبعية والتقليد

الأعمى للآخر في نواحٍ عديدة ذكر منها اللباس الذي يلبسه الفرد والمجتمع، كمميز للشخصية ودليل على استقلالها أو تبعيتها.

فلباسنا التقليدي الذي يعبر عن شخصيتنا وهويتنا واستقلالنا قد اعتمد على زراعتنا وحيواننا ونولنا وحرفيينا، وإذا كان تعبيرا عن حضارة كاملة فقد كان التخلي عنه يعني تدمير ذلك كله، وإذا كان الزي الغربي قد اعتمد على طراز آخر من أصناف الأقمشة وألوان التقنية، وكان تعبيرا عن حضارة أخرى، فقد كان الركض وراءه يعني الاعتماد على الخارج مهما حاولت الصناعة المحلية تقليدها واللحاق بمستواها ومنافستها، وبهذا تكون الحملات التي شنت على لباسنا التقليدي قد أدت إلى تدمير اقتصادنا، وتحويل مجتمعنا إلى مستورد دائم، بينما رحنا ننظر في المرآة ونعجب (بزي عبوديتنا)، بل الأنكى من ذلك أن شخصيتنا المستقلة ضربت أيضا في هذه العملية، ولم يتحقق وعد اللحاق بهم والتفوق عليهم، فقد أصبح مصمم الأزياء في العواصم الغربية الكبرى يقرر لنا رجالا ونساء وشبيبة وفتيات ما نلبس في كل فصل من فصول السنة، قماشا وطرازا وألوانا، وغدت مجاراة الموضة من علامات العصرية والتقدم والنهضة، ولم يعد لأحد أن يعترض حين يقرر خليع من خلعاء الأزياء في تلك العواصم أن نقصر أو نضيق أو نوسع أو نطوّل، أو أن يكون اللون زاهيا أو ثقيلا أو معرقا أو مخططا

أو سادة، فما كان يعتبر جميلا وعصريا يصبح بشعا وقديما بين صيف وصيف، أو ربيع وربيع، أو خريف وخريف، أو شتاء وشتاء، وكذلك الحال بالنسبة إلى ما كان يعتبر تقليديا، وغير عملي، يصبح بين سنة وأخرى عنوان الرشاقة والأناقة والذوق الرفيع، وهكذا أصبح السير على هذه الطريق يقود إلى الانحطاط الخلقي، وهدر الكرامة الإنسانية، ودحر الشخصية المستقلة، وضرب الهوية الأصيلة، ويؤدي إلى المزيد من التبعية للخارج اقتصاديا وثقافيا وحضاريا، إضافة إلى ما في ذلك من ضرب لأساسات المجتمع وتذويب شخصية أفراده.

وهناك علاقة وطيدة بين ما يعتقده الناس وواقعهم الذي يعيشونه، وهذا ما لاحظه شيخ الإسلام ابن تيمية، من أن هناك علاقة طردية بين صفاء العقيدة وتقدم المجتمعات وبالعكس، فكلما كانت العقيدة صافية كلما تحقق وساد الاستقرار السياسي والأمن الاجتماعي وازداد المجتمع قوة وتفوقا. وبقدر ما تضطرب العقيدة بقدر ما تسير المجتمعات نحو الاضطراب سياسيا واجتماعيا واقتصاديا.

لقد طبق ابن تيمية هذه القاعدة في تفسير تفكك المجتمعات الإسلامية ابتداء من دولة الأمويين التي ظهرت فيها البدع الكلامية، إلى دولة العباسيين وما بعد العباسيين حيث ظهر الإلحاد وتفشت المظاهر المرضية للدين في شكل الطرق الصوفية، وتحولت العقيدة

من مصدر قوة إيجابية محركة للهمم ودافعة للتقدم إلى قوة سلبية عائقة.

ومن مظاهر الكلالة النفسية المتفشية في كثير من المجتمعات الإسلامية ذلك المظهر من الاتكالية الاجتماعية على الدولة، حيث يلقي المجتمع بمسؤولياته كاملة على الدولة، يطلب منها أن تقوم هي عنه بكل ما من شأنه أن يقوم هو به، فإذا هو ينسحب من ميدان الأفعال الخيرية، وواجبات التكافل الاجتماعي، ومهمات المراقبة العامة والإشراف التربوي ليلقي بها جميعا على عاتق الدولة ويكون عيالا فيها عليها.

وهذا على عكس ما يحدث في المجتمع الغربي حينما تتفشى مشكلة ما في المجتمع فإنها تصبح هما جماعيا للناس، تلتقي حولها المؤسسات والهيئات والأفراد للتداول والبحث عن العلاج، وقد يؤول الأمر فيها بالتقاء الإرادات حولها إلى أزمة سياسية تسقط من أجلها حكومات وأنظمة لتأتي الإرادة الجماعية بأخرى بديلة عنها تكون أقدر على حلها.

وهذا يؤكد بما لا يدع مجالا للشك أنّ إصلاح المجتمع لا يكون إلاّ بصلاح أفراده؛ فالإنسان أولاً وأخيرًا هو المحور الأساسيُّ الذي يجب أن تبدأ منه وبه كلُّ حركات الإصلاح الاجتماعيِّ إذا كانت هذه الحركات صادقةً وأمينة، فكم من المصانع أُنشئت، ولكن سرعان ما

فسدت؛ لأنّ الإنسان الذي يديرها هو نفسه في حاجةٍ إلى إصلاح، وما لم تبدأ بإصلاح الإنسان أوّلاً فلا أمل يرجى في إصلاح شيءٍ في هذا المجتمع، كما أشار إلى ذلك الدكتور محمد الجليند.

إن الجهالة قرينة التخلف، فكلما كان المجتمع متخلفا، كانت الجهالة أحد تعبيراته الاجتماعية. فالمجتمع المتخلف لا يستشعر الحاجة إلى ترقية نمط حياته، بل إنه يقاوم عمليات الترقي.

وهذا ما جعل الدكتور محمد دراز في كتابه (المسؤولية في الإسلام) يحدد ثلاث حالات يجازى فيها الإنسان على عمل غيره من الأفعال المتولدة عن فعله هي:

١ـ أن يكون للإنسان تسبب مقصود في عمل الغير بالأمر به أو الإيحاء إليه فلا يكون مسؤولا عن الأمور والإيحاء فقط بل يتحمل في ذلك شطرا من جزاء العمل. فالدال على الخير كفاعله، والآمر بالسوء والفحشاء كذلك.

٢ـ أن يكون للعبد تسبب في الفعل لمجرد مكانته الاجتماعية أو قدرته السلوكية لغيره. فمن سنّ سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، وكذلك من سن سنة سيئة.

٣ـ أن يكون هناك تسبب غير مباشر في فعل الغير كأن يكون سبب انتشار الشر والفسق سكوتنا عن محاربته فيشيع ذلك في المجتمع، فإن السكوت على الباطل نوع من محاربة الحق، والساكت

عن الحق شيطان أخرس. وهذا يدل على اتساع مسؤولية الفرد تجاه المجتمع، لوجوب محاربته الأمراض الاجتماعية التي قد تظهر وتشيع بين أفراده.

وتعد الحاجة إلى التقدير الاجتماعي إحدى الحاجات الدينامية (المحركة) للوجود، وتنطوي على جانبين أساسيين: يتمثل الأول في أن يحظى المرء بحب الآخرين وتقديرهم، وبخاصة في أحضان الجماعات المرجعية كالأسرة والمدرسة وجماعات الرفاق، ويتمثل الجانب الآخر في احترام الذات وتقديرها. وغني عن البيان أن احترام الذات ينبثق عن احترام الآخرين، وأن صور الذات مرهونة إلى حد كبير بالانطباعات التي يسجلها الآخرون عن الفرد. ومن هذا المنطلق يجب الابتعاد عن كل ما من شأنه تبخيس شخصية الإنسان -والطفل بشكل خاص -والحط من شأنه.

وفي حديث النبي ﷺ (وهو حسن الإسناد) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: « المؤمن مرآة أخيه، إذا رأى فيه عيباً أصلحه». قال المناوي في فيض القدير شارحا لبعض أسرار هذا الحديث النبوي: المؤمن مِرآة المؤمن، فأنت مِرآةٌ لأخيك، يبصر حاله فيك، وهو مِرآةٌ لك، تبصر حالك فيه، فالمؤمن يبصر بأخيه من نفسه ما لا يراه بدونه. قال العامري: كن لأخيك كالمرآة تريه محاسن أحواله وتحثه على الشكر، وتمنعه من الكبر وتريه قبائح الأمور كي

يتجنبها، كل ذلك بلين، في خفية، تنصحه ولا تفضحه.

وإنما يعلم الشخص عيب نفسه بإعلام أخيه له في أحيان كثيرة، كما يعلم خلل وجهه بالنظر في المرآة فإن رأى أحدكم بأخيه أذى، أي عيبا مما يؤذيه أو يؤذي غيره فليمطه، واجعل أخاك مرآة ترى فيها نفسك، فكما تزيل عن وجهك كل أذى تكشفه لك المرآة، فأزل عنه كل أذى به عن نفسه، إما بإعلامه حتى يتركه أو بالدعاء له حتى يرفع عنه، وهذا وجه قول عمر الفاروق رضي الله عنه: «رحم الله امرأ أهدى إليّ عيوب نفسي».

وإذا كان من يُهدي العيوب يستحق الرحمة وفق كلام الفاروق كما في العبارة السابقة، فإن من يُهدي المحاسن، ويشير إلى مواطن الخير والصلاح، وأمارات النجابة والذكاء، يستحق من الله وافر الرحمات، وهذا ما أشار إليه الدكتور بشير المساري، وهو يؤكد على أهمية التعزيز المتوازن الذي يتلقاه المرء من مجتمعه، في مقابل ما يقدمه لهذا المجتمع من خير، فطالما تطلع الإنسان الصالح للنظر إلى نفسه من مرآة الآخرين، ومعرفة وضعه السلوكي من ميزان الدين والمجتمع، فإن عثر على مكانته المتقدمة، حمد الله وأثنى عليه وزاد من عمل الخير، ولذا كان إهمال ذكر سابقة الرجل الصالح وعدم الاعتراف بها يعني شهادة سلبية أنه خالي الوفاض صفر اليدين، عديم النفع، وقد ينعكس

ذلك سلباً على النفسية الضعيفة، ويكون عليها فتنة.

إن المِرآة اختراع رائع، فبدونها ترتكب خطايا كبرى ضد الجمال واللياقة والذوق، ونحن بحاجة إلى مِرآة لأعمالنا، وقد يأتي ذلك أحيانا من الآخرين الذين يخبروننا بما يرونه فينا، وهذا ما جعل للتعاون والاجتماع سراً عجيباً، لأنه إذا اجتمع حُسنُ ثلاثة أشياء صارت كخمسة، وخمسة كعشرة، بسرِّ الانعكاس. إذ في كل شئ نوع من الانعكاس ودرجة من التمثيل، كما إذا جمعت بين مِرآتين تتراءى فيهما مرايا كثيرة، أو نوّرتَهما بالمصباح يزداد ضياء كل بانعكاس الأشعة؛ فكذلك اجتماع خيار الناس، وبديع المعاني، وسمو الأفكار.

ومن هذا السر والحكمة ترى كل صاحب كمال وصاحب جمال يرى من نفسه ميلاً فطرياً الى أن ينضم الى مثيله ويأخذ بيد نظيره ليزداد حسناً الى حسنه، حتى إن الحجر مع (حَجَريته) إذا خرج من يد المعقِّد الباني في السقف المحدب يميل ويُخضع رأسَه ليماسّ رأس أخيه ليتماسكا عن السقوط، ولهذا فالإنسان الذي لا يدرك سر التعاون والاجتماع هو أجمد من الحجر؛ إذ من الحجر ما يتقوس لمعاونة أخيه! كما جاء في إشارات الإعجاز.

والناس في الكثير من المجتمعات الإسلامية، كما يشير إلى ذلك الدكتور عبد المجيد النجار، ينصرفون عن أن يلتقوا في هيئاتهم

الاجتماعية المختلفة ليحلوا مشاكلهم بصفة جماعية تلتقي فيها إرادة الحل تدبيرا وتنجيزا، ينصرفون عن ذلك ليبحث كل فرد عن حل خاص به يوجه إليه إرادته لينقذ به نفسه في معزل عن الآخرين. إنهم لا يلتقون على صعيد واحد ليفكروا في حلول لتلك المشاكل والأزمات الجماعية الطاحنة، وإنما يلجأ كل منهم إلى حل مشكلة نفسه بطريقته الخاصة، إما بالتحايل والمخادعة، وإما بالاستيلاء المغلف بأغلفة متنوعة، وإما بالهجرة إلى حيث موارد الرزق، والمشاكل الجماعية -كما يقول منطق التاريخ -لا تحلها إلا الإرادة الجماعية.

وفي المجتمع المتخلف مدنيا، حسب تعبير الدكتور عبد الكريم بكار، يعجز الناس عن كشف ذواتهم، ويعجزون عن كشف غيرهم، وهم يندفعون إلى التكديس والاستحواذ، لأنهم مفتونون بالمظهر على قدر زهادتهم بالجوهر، وغرامهم بالأشياء يدفعهم إلى تشييئ الإنسان، ومعاملته على نحو ما يعاملون الأشياء، يقربونه عند الحاجة، ويرمونه عند الاستغناء عنه. وهو عندهم متهم حتى تثبت براءته، وقدرتهم على المعاقبة أعظم من قدرتهم على الإثابة والمكافأة. وحدود الممنوعات والمباحات في المجتمع المتخلف مطموسة، فلا يدري الفرد حدود القول أو التصرف الذي سيجر عليه الويلات. وحين يبني مجتمع حياته على الغموض، فإن عليه أن يكون مستعدا

لقبول كل التعليلات التي تسبغ على الجرائم الكبرى لبوس المشروعية، حيث إن من طبيعة الإبهام (الغموض) أن يسمح بعدد كبير من التأويلات الفجة، وأعتقد أن ضعف المكاشفة والشفافية في حياتنا العامة، قد أدى إلى ذلك على نحو فاجع!

والمجتمع الفاضل ـ في الرؤية الإسلامية ـ هو الذي يستطيع القيام بشؤونه وإدارة أوضاعه مع أدنى قدر من تدخل الدولة، ذلك لأن الناس لا يرتاحون إلى الخضوع لأي سلطة مهما كانت، والدولة الفاضلة هي التي تسير الحركة في مجتمعاتها بأدنى قدر من استخدام العنف والقوة.

وإيماننا بأن الحكومة هي صورة في المِرآة لجسم متحرك أمامها اسمه الشعب، فإذا كانت الصورة قبيحة فعلينا إصلاح الشعب لا تحطيم المِرآة، لأن أي مِرآة جديدة ستعطينا نفس الصورة السابقة، هذا الإيمان يَكْفرُ به كثيرون لأن الحكومات عندهم مذنبة ومسؤولة عن كل سلبيات الواقع، والشعوب بريئة وواعية وصادقة، ونشيطة، حسب تعبير الأستاذ /عيد الدويهيس.

وما ينطبق على الفرد ينطبق على المجتمع، فعندما تُكوّن صورة سلبية في أذهان أفراده، فإن ذلك سيدفع بالمجتمع في طريق الهبوط دائما. إننا عندما نردد فيما بيننا أوصافا سلبية ننعت بها مجتمعنا، إنما نساعد على تكريس هذه الأوصاف وانتشارها في

المجتمع. ولا نستطيع أن نوجد مجتمعا أقوى من مجموع أفراده، ولذا فإن المجتمعات القوية لم تقم إلا على نجاحات وانتصارات كثيرة ومتميزة، حققها كثيرون من أبنائها في حياتهم الشخصية الخاصة.

ومن القواعد الأساسية أن التغيير يبدأ من الذات المغِّيرة (أي التي تريد التغيير) وليس من الذات التي يراد تغييرها. والثقافة تفقد الكثير من وظائفها إذا لم نعرف كيف نجعلها في خدمة مجتمعاتنا. إنّ لله تعالى قوانينه التي تحكم حركة الحياة في المجتمع، ومن شأن هذه القوانين أن تأخذ بهذه المجتمعات إلى مكان الريادة والصدارة، فتسود هي، وتسود معها أخلاقياتها ومبادئها وعقائدها، وإذا كانت هذه المبادئ تعتمد في أسسها على عقائد صحيحة كان لها الخلود والدوام، وهذا ما تميزت به مبادئ الإسلام في تأسيس حضارته وبناء مجتمعاته، كما يؤكد على ذلك د. محمد السيد الجليند.

والتغييرات الكبيرة في أي مجتمع يسبقها حرث وتقليب للبيئة الاجتماعية، مضافا إلى ذلك طول صبر وسعة صدر وإصرار على إحداث التغيير، وعندما يحدث -ولن يحدث إلا على أياد مخلصة صادقة متوضئة- فستجد أن المجتمع لم يعد ذلك المجتمع السلبي الاتكالي بل سيكون مجتمعا مبادرا إيجابيا، وهذا يؤكد على أن

تغيير المجتمعات يُعدُّ من الصناعات الثقيلة التي تحتاج إلى الجهود الضخمة والوقت المناسب ووعي رواد التغيير، وقبل هذا وذاك توفيق الله، فالقلوب بيده سبحانه.

والتاريخ يعلمنا أن الفضيلة يمكن أن تختفي من الواقع، وتغيب عن الوعي إذا لم تجد من يدافع عنها ويحميها وينشرها، ويقاوم الرذائل التي تزاحمها، والمجتمع الإسلامي في حاجة إلى ألوف المؤسسات والهيئات والمبادرات التي تحمي مبادئه السامية وقيمه العظيمة، وتعمل على ترسيخها في الوعي والسلوك بكل وسيلة ممكنة.

ولأنه لا شيء يغري بالانحراف كالانحراف نفسه، فمجرد أن تتمكن فئة ما من تجاوز النظام والقانون، فإنها تشجع وتغري الفئات الاجتماعية الأخرى على ذلك، وينتج عن ذلك ظلم وفساد، ويشعر كثيرون أن مجتمعهم لا يستحق التضحية، كما إن وطنهم لا يستحق الخدمة المجانية، وكما قال أحدهم: «لماذا أدافع عن مجتمع لم يساعدني في الوصول إلى حقي، كما لم يؤمِّني من خوف، ولم يطعمني من جوع ؟» د. عبد الكريم بكار.

والملاحظ في التاريخ الإنساني عامة، أن كثيرا من المجتمعات هي التي تصنع المستبدين وتمكن لهم، وتدفع بهم إلى مقام الفراعنة، من خلال العنف الأسري، والعنف المدرسي، والعنف الاجتماعي، والعنف والتزلف السياسي، والعنف والتزلف الفكري والإعلامي،

وغفلة جماهير المجتمع عامة، والقوى الحيوية فيه، عن دورها ومسؤولياتها تجاه الشأن العام، بل وانسحابها من ذلك، وانطوائها على نفسها ومصالحها الخاصة، وترك المجال فسيحا للقوى الانتهازية لتصنع المستبدين وتسلطهم على المجتمع ومقدراته، ولو أن هذه القوى الاجتماعية الخيِّرة قامت بدورها ومسؤولياتها تجاه الشأن العام، ونافست على ذلك وصبرت واحتسبت، لما تسلّق سلمَ المسؤوليات الفكرية والاجتماعية والسياسية الخطيرة في المجتمع، ضعيف أو مريض أو انتهازي أو مفسد، ولما عانى العباد الأمرّين من ذلك، ولما تعرّضت هذه المجتمعات إلى كل هذه الأخطار المهلكة.

د. الطيب برغوث.

وكثيرا ما يخرج الاستبداد السياسي من عباءة الفوضى الاجتماعية، وتخرج الفوضى الاجتماعية من عباءة الاستبداد السياسي، فكل من الفوضى والاستبداد يُغذِّي الآخر ويتغذى عليه. فالطغيان السياسي يؤدّي إلى ردود فعل فوضوية في المجتمع، والفوضى تسوّغ الطغيان السياسي وتجعل الناس ترضى به، خوفا على الدولة من الانهيار، وعلى المجتمع من الاندثار.

إن مما أطال في عمر الحضارة الغربية -على ما فيها من أخطاء فادحة -اعتماد المفاتحة والمفاتشة، وإيجاد آليات عديدة، يراقب من خلالها كل فرد في المجتمع تصرفات كل فرد فيه، وإن ثقافة

الصمت هي إحدى أخطر العلل التي أصابت الحضارة الإسلامية، وأوقفتها عن العطاء والنمو.

إن المجتمع العلمي، كما يشير إلى ذلك (الفيلسوف برتراند راسل) ليس ذلك الذي يشيّد المدارس والجامعات، وينشر الكتب، وإنما ذلك المجتمع الذي يصوغ حياته اليومية ونظمه وأعرافه وفق المعارف والآداب التي يلقنها لأطفاله. وحاجة المجتمعات ليست في صفوة مستنيرة، وإنما إلى استنارة عامة، تمكِّن المجتمع من إدراك أهدافه وملاحقة مصالحه، والمجادلة عن حقوقه ... والشعوب المتخلفة في أصقاع الأرض، لا تشكو ضعفا ثقافيا في قمة الهرم، وإنما تشكو وهنا وجهلا وتشتتا في قاعته العريضة. ولن تتملّك أمتنا زمام الحضارة مالم يصبح التعلم، والبحث عن الجديد حركة مجتمع لا حركة صفوة أو فئة. وليس بإمكان مجتمع ما أن يتقدم دون أن يتقدم الفكر لديه، وفق تعبير الدكتور عبد الكريم بكار. ومن المستحيل تحقيق استقرار حقيقي من غير شعور الناس بأنهم يعيشون في مجتمع يمكنهم من الوصول إلى الفرص التي يستحقونها، والمجتمع الذي يضغط على أفراده من غير تربية صالحة، مجتمع ظاهره خير من باطنه، وهو مجتمع كثير العادات قليل العبادات. وهذا ما يقول به الشاعر الألماني جوته: «إن نقائص الإنسان مستمدة من عصره (مجتمعه)، أما عظمته وفضائله فمستمدة

مـن نفسـه».

وإن أفكارنـا عـن النجـاح، كمـا يصورهـا الدكتـور عبـد الوهـاب المسـيري، مرتبطـة بتصورنـا لأنفسـنا ولدورنـا فـي المجتمـع، وتوقعاتنـا مـن هـذا المجتمـع. إن تصورنـا عـن النجـاح هـو أسـاس تصورنـا لأشـياء كثيـرة، ولا شـئ يسـاعد علـى وحـدة المجتمـع مثـل احتـرام الخصوصيات والتسـامح مـع التلوينـات الثقافيـة. كمـا إنـه لا شـئ يخـدم الاعتـدال مثـل فـوز المجتمـع بعـدد كبيـر مـن المعتدليـن، فالمجتمـع الفاسـد أو الضعيـف أشـبه بطحيـن فاسـد، كمـا شـبهه بذلـك الدكتـور عبـد الكريم بـكار، كل مـا يُصنـع منـه مـن خبـز وكعـك لـن يكـون إلا كذلـك. وعلينـا أن نكـون علـى وعـي بـأن مصيرنـا الشـخصي، ليـس منفصـلا عـن مصيـر مجتمعنـا. وإن الـذي يريـد أن ينمـو علـى حسـاب اضمحـلال مجتمعـه أشـبه مـا يكـون بالسـرطان الـذي ينمـو علـى حسـاب تدميـر الجسـم الـذي يعيـش فيـه، وهـو حيـن يدمـر الجسـم يدمـر نفسـه فـي النهايـة. وهـذا يقودنـا إلـى القـول إن مجمـوع المبـادرات الفرديـة فـي أي مجتمـع هـو مقيـاس دقيـق لمـدى حيويـة ذلـك المجتمـع، وقابليتـه للنمـو والتقـدم. وإن التنظيـم فـي الأصـل وسـيلة لاسـتخراج القـوة مـن الأفـراد، وتوجيههـا، وليـس غايـة وهدفـا مسـتقلا، كمـا يتصـور البعـض. والمجتمـع الـذي يعمـل فيـه كل فـرد مـا يحلـو له ليـس مجتمعـا، -كما يقـول المفكـر مالـك بـن نبي-ولكنـه إمـا مجتمـع فـي بدايـة تكونـه

وإما مجتمع بدأ حركة الانسحاب من التاريخ فهو بقية مجتمع. والتربية في كل أحوالها لا تهتم بالفرد منعزلا عن المجتمع بل تهتم بالفرد والمجتمع معا وفي وقت واحد ومتزامن من خلال اتصال الفرد بمجتمعه وتفاعله معه سلبا وإيجابا، وهذا هو واجب التربية الأسمى وغايتها القصوى.

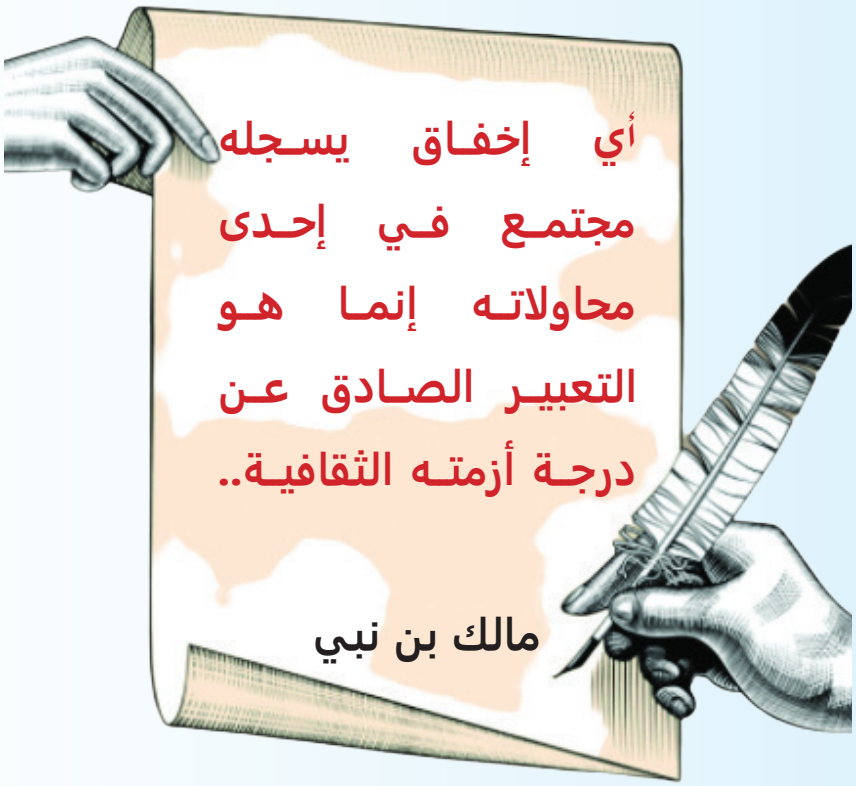

المرايا التاريخية... فاعتبروا يا أولي الأبصار

ذكر السلطان (العبدلي) سلطان لحج في مذكراته، أن بريطانيا طلبت منه التوقيع على وثيقة معينة، فيها نوع من التنازلات الكبيرة، التي لم يفصح عنها في هذه المذكرات، وقد رفض التوقيع مطلقا، وأثناء عودته إلى القصر لم يفتح له الحراس البوابة، بل ومنعوه من دخول القصر!!! فحاول معهم، وعرفهم بنفسه، ولكن ذلك لم يزدهم إلا تمنعا وصدا للسلطان.

المهم في الأمر، أن السلطان فهم الأمر، وعرف الرسالة، ومن ثم عاد إلى مقر الحاكم البريطاني، ووقع على الوثيقة التي رفض في المرة السابقة التوقيع عليها، لما تحتويه من تنازلات مجحفة، وبعد التوقيع عاد أدراجه إلى القصر، فوجد الحرس السلطاني مصطفّا في استقباله، مع الفرقة الموسيقية، فقال في مذكراته: حينها أدركت أنه كلما رأيت حاكما أو زعيما له صولة وجولة وعظمة وهيلمان، وهو بعيد عن شعبه، عرفت أنه قدّم الشيء الكثير، وقدم تنازلات كبيرة على حساب وطنه ومبادئه، والتاريخ تواريخ.

ألا تذكركم هذه الحادثة بأشباه سلاطين، يكررون نفس المشهد بحذافيره، على مستوى اليمن، وعلى مستوى العالم العربي والإسلامي؟ في حالة من التشابه والتماهي لا تخطئها العين، وكأنما قوله تعالى يصف حالهم، ويصور نفسياتهم في أوضح صورة وأجلى بيان،

﴿أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات:٥٣] ، وفي نفس السياق، كنت أشاهد قبل يومين فيلما وثائقيا عن الجاسوس ورجل المخابرات البريطاني المعروف (بلورنس العرب)، والذي استطاع أن يوجّه ما سُمّيَ في حينه (بالثورة العربية)، ضد الوجود العثماني في الأرض العربية، وعلى وعد من بريطانيا عن طريق هذا الجاسوس، أن يتم منح العرب الحكم الذاتي على بلادهم، في حال ساندوا قوات التحالف في الحرب العالمية الأولى، بإنهاء الوجود العثماني في الأرض العربية، وكان العثمانيون قد دخلوا الحرب في حينها إلى جانب ألمانيا.

وبالفعل، فقد جيّش هذا الجاسوس مع الملك فيصل القبائل العربية ضد القوات العثمانية، وبينما كان العرب وبتوجيه من هذا الجاسوس يفجرون الجسور وسكك الحديد، لقطع الطريق على القطارات التي كانت تصل الأقطار العربية ببعضها، وكانت معاهدة (سايكس - بيكو)، لتقسيم البلاد العربية، تطبخ على نار هادئة، ويتم تقسيم بلاد العرب بين بريطانيا وفرنسا، وهذا ما تم على أرض الواقع، وتبخرت وعود بريطانيا بحكم ذاتي للعرب، وبدأ الاحتلال البريطاني والفرنسي للأرض العربية، والذي استمر إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية، ولا زال جزء عزيز من الوطن العربي والإسلامي تحت الاحتلال الاسرائيلي حتى اليوم، وهو فلسطين العزيزة.

وقد وثّق هذا الجاسوس كل ما حدث بالتفصيل، في مذكرات له بعنوان (أعمدة الحكمة السبعة)، ولو قرئت هذه المذكرات بتمعن لما تكررت مآسينا، ولما ظهر لنا في كل عام (لورنس) جديد، ليكرر ما قام به (لورنس العرب)، ولتوقفت خيباتنا ممن لا يزالون يراهنون على وعود بريطانيا أو غيرها، ولديهم استعداد أن يستقبلوا المندوب السامي في عواصمهم، ولا يجرؤون على فعل شيء حتى يصلهم الضوء الأخضر من هذا المندوب السامي.

عرب ولكن لو نزعت قشورهم لوجدت أن اللبّ أمريكاني

إن الإنسان ليقف حائرا أمام هذا التكرار المخجل للحال العربية والإسلامية، ويتساءل: هل لا زال هؤلاء يحتفظون بذاكرة تاريخية؟ أم أنها قد سلبت منهم، فصاروا يهيمون في كل واد، ويتبعون كل ناعق، ويبيعون لأول مشترٍ، ويخضعون لأول غازٍ، ويضحك عليهم كل شاذ ودنيء، وكأنّ هؤلاء هم من عناهم الشاعر نزار قباني في قصيدته الطويلة الرائعة (إفادة في محكمة الشعر)، والتي مطلعها:

مرحبا يا عراق جئت أغنيك وبعض من الغناء بكاء

والشاهد الذي نريد أن نورده هنا، له علاقة بموضوع مقالنا هذا، حيث قال:

لو قرأنا التاريخَ ما ضاعتِ القدسُ وضاعت من قبلها «الحمراءُ».

التاريخ صورة لما نحب وما نكره، وهو تمهيد لنا لاختياراتنا

القادمة، بحلوها ومرها، ومآسيها ومفاخرها، والجهل بالتاريخ شبيه بفقدان الذاكرة، والفارق بين أمة تهتم بالتاريخ وأمة لا تهتم به هو أضعاف أضعاف الفارق بين سليم الذاكرة وفاقدها.

اقرأوا التاريخ إذ فيه العبر ضلّ قومٌ ليس يدرون الخبر.

قال الصديق لصديقه: لماذا لا يصيح ديككم؟ قال: اشتكى منه الجيران لأنه يوقظهم من نومهم في الفجر فذبحناه!!

هنا فهمت أن كل من يوقظ الناس من سباتهم على امتداد التاريخ، هناك من لا يريد له البقاء على قيد الحياة ليقوم بهذه المهمة!! وفي حياتنا يتداول الناس الحديث حول الدجاج ولا أحد يذكر الديك. الجميع يفكر بما يملأ بطنه ولا يفكر بمن يوقظ عقله وفكره!

إن التاريخ يعطي دروسا مجانية للأذكياء الفطناء، ولكنه يجعل الأغبياء والحمقى يدفعون أثمانا باهضة في مقابل الدروس التي يقدمها لهم، بعد أن يكون قد فات وقت الاستفادة منها، فيجعلهم يعيشونها مرة أخرى، لأنهم لم يكونوا أهلا لفهمها ممن سبقهم، والاعتبار بحالهم وما وصلوا إليه، وعدم تكرار تجاربهم المدمرة التي وقعوا فيها، فكان من نصيبهم أن يكرروها مرة أخرى.

وهذا ما يراه الشيخ أبو الحسن الندوي، حيث يرى أن التاريخ مرآة الأمم، وخزانة العبر، المُبْرِزة لأسباب النهوض والهبوط في حياتها،

فليس ثمة من سقوط أو نهوض يحدث عفوًا أو اتفاقًا، وإنما هي سنن وقوانين مرتبطة بتصرفات الأمم وأعمالها، فعلى هذه التصرفات والأعمال تتوقف مصائرها في مسيرة التاريخ، وعلم القرآن الكريم والحديث الشريف هو الدليل الهادي إلى أسرار هذه السنن الإلهية وعملها في حياة البشر، والتمكن من علم التاريخ والأدب أداة لا مَعدَى عنها لإبراز هذه الحقائق على أفضل وجه.

والتاريخ مرآة الماضي بحسناته وسيئاته، وآثاره آيات ودلائل على أعمال الأمم السابقة. والتاريخ لا يخضع للأمزجة والأهواء والرغبات. كما لا يمكن محاكمته بأثر رجعي، وهو في حاجة إلى من يتمعن فيه بإنصاف وموضوعية، ومن الإنصاف والموضوعية أن يتمعن فيه وفقا للظروف والملابسات التي حدث فيها. والتاريخ إن فهمت الماضي، فسيرشدك إلى حل ألغاز الحاضر، واستشعار المستقبل.

يقول الشيخ محمد الغزالي: إن العيب في دراسة التاريخ، أننا أحيانًا نطالع صفحاته لنقرأ أنباء الانتصارات والهزائم، ولكن التاريخ شيء آخر، وهو أن نعرف ما المقدمات التي انتظمت حتى انتهت بالنصر أو الهزيمة...!

إن كل ناجح في التاريخ، يعرف جيدا أثر الهزيمة على جيشه، فيبذل كل شيء لئلا تقع، فإن وقعت بذل كل شيء ليمحو أثرها من النفوس! فالتاريخ لا يرحم من لا يتعلمون.

وفهم التاريخ هو مفتاح فهمنا للحاضر وطريق بحثنا عن الحل في المستقبل، والتاريخ يقول لنا إن احتلال بيت المقدس لم ينجح إلا باحتلال العواصم المحيطة به أولا، كما إن تحريره لم يكن إلا بتحرير العواصم المحيطة به كذلك، لقد فتح المسلمون دمشق قبل فتح بيت المقدس، ولولا الخيانة العبيدية (الفاطمية) في القاهرة ما أمكن للصليبيين احتلال بيت المقدس، ثم لولا تحرير دمشق ثم القاهرة وتحريرهما من أمراء الخيانة ما تم لصلاح الدين الأيوبي تحرير بيت المقدس، ولم يُحرر الساحل الشامي إلا لما كانت القاهرة مستقلة متحررة تحت حكم المماليك، ثم لم تسقط القدس مرة أخرى إلا بعد احتلال القاهرة ودمشق وانهيار الدولة العثمانية. كما يشير إلى ذلك المؤرخ محمد إلهامي.

وفي تشخيص دقيق، ونظرة عميقة، يشير المفكر علي عزت بيجوفيتش، إلى طبيعة الاتجاه الذي يمكن أن يتجهه الإنسان الذي يريد الهروب من مرارة الحاضر فيقول: «يمكن للإنسان أن يهرب من الحاضر البغيض في اتجاهين: الماضي أو المستقبل، ويتوقف الاختيار على طبيعة الشخص وقناعاته»، وهو بهذه الإشارة، يريد أن يؤكد لنا أن عملية الهروب باتجاهيها غير مجدية، فالإغراق في الماضي مهما كانت مكانته وأهميته، هو نوع من الهروب إلى مجاهل التاريخ، وسحبٌ للحاضر إليه، بدلا من توظيف الماضي في

خدمة الحاضر، والهروب إلى المستقبل على أجنحة الخيال والأحلام، هروب إلى عالم يتجاوز الحاضر دون أن يسعى في توظيف الرؤى المستقبلية الناضجة للنهوض به.

إن الحوادث التاريخية إذا نظرنا إليها من وجهة النظر التاريخية، سنجد أنها حوادث فردية وفريدة، لا تتكرر على شكل مماثل، ومن ثم فهي تعبِّر بالفعل عن وقائع فريدة غير قابلة للتكرار، ولكننا إذا نظرنا إلى هذه الوقائع المتناهية في امتدادها التاريخي، وفي سياقها التطوري، وفي الأسباب التي أدت إلى حدوثها، وفي النتائج التي انتهت إليها، وحاولنا أن نجردها من فرديتها، وننظر إليها في كليتها، سنجد أن مضمون هذه الوقائع وليس شكلها، قابل للتكرار والاطراد، ويكشف عن علاقة سببية مطردة بين ظاهرة وأخرى، فالأسباب المباشرة في خلق هذه الوقائع وظروفها الزمانية والمكانية، تختلف من واقعة إلى أخرى، كما يؤكد على ذلك الدكتور محمد امزيان، ولكن تفحُّص هذه الأسباب لا يخلو من دلالة تكشف عن الترابط المنطقي بين النتائج وأسبابها، هذا الترابط هو الذي يتيح لنا استخلاص القانون العام، الذي تخضع له هذه الوقائع التاريخية الجزئية، فكلما توفرت أسباب معيّنة وفي ظروف معينة، ارتبطت بها نتائج معينة.

وها هو الزمن يدور دورته، ويسحب ذيل النسيان على كثير

من المسائل التي نصعِّدها بحماسنا، ثم تأبى السنة الربانية إلا أن تعيدها إلى حجمها الصحيح. إن عنصر الزمن يعطي المشكلة حجمها الحقيقي، ويكشف الفرق بين تخيلنا وبين واقع الحال؛ ولهذا يقول بعض العلماء: إن الفتن إذا أقبلت عرفها العلماء، وإذا أدبرت عرفها كل الناس.

إن الإنسان، وكذا كل كائن عضوي، لا يقيم أبدا في لحظة واحدة من لحظات التاريخ، بل في أحوال الزمن الثلاثة، الماضي والحاضر والمستقبل، تكون في حياته كلا لا يتجزأ. فالحاضر مفعم بالماضي مثقل بالمستقبل، ونحن لا نستطيع أن نصف الحالة الآنية للإنسان أو أي كائن عضوي دون أن نأخذ تاريخه بعين الاعتبار، ودون أن نحولها إلى حالة من المستقبل، تكون الآنية بمثابة نقطة العبور إليها، حسب تعبير أرنست كاسيرر، في كتابه (مدخل إلى فلسفة الحضارة الإنسانية).

وتأمل معي ما قاله رواد (العروة الوثقى، الأفغاني وعبده)، في بدايات القرن العشرين، وهما يستثيران في المسلمين روح التفكير والمراجعة والتأمل: «ألا إن الزمان يواتيكم بالفرص، وهي لكم غنائم، فلا تفرطوا فيها، إن البكاء لا يحيي الميت، إن الأسف لا يرد الفائت، إن الحزن لا يدفع المصيبة، إن العمل مفتاح النجاح، إن الصدق والإخلاص سُلّم الفلاح، إن الوجل يقرب الأجل، إن اليأس وضعف

الهمة من أسباب الحتف».

وزبدة القول، هو ما أردده مع أ. د. فؤاد البنا: إن الزمن سيلٌ هادر، إن لم تسْقِ به أرض حياتك كما تريد؛ فإنه سيغرقها كما يريد. وعندما تكون الأمة واعية، يصبح ماضيها وتاريخها - بشكل عام - صانعا لحاضرها ومستقبلها، وعندما تكون الأمة غارقة في جهلها وغيها، يصبح ماضيها وتاريخها قيدا مكبِلا لحاضرها ومستقبلها. فالأولى نقلت أجمل ما في ماضيها وتاريخها ليعيش في حاضرها ومستقبلها، والثانية انتقلت إلى ماضيها وتاريخها في أسوأ صفحاته لتعيش بين رفاته وعفنه. الأولى استخدمت أجمل ما في الماضي وأضافته إلى رصيدها في الحاضر والمستقبل، أما الثانية فقد شوّهت حاضرها ومستقبلها بحجة البحث عن أصالتها، وبدل أن يخدمها ماضيها وتاريخها، صارت هي من يخدم هذا الماضي، بسحب حاضرها ومستقبلها إليه، وشتان بين من يخدم ومن يستخدم، كما هو الفرق بين العبد والحر.

إن التاريخ قاضٍ عادل إلى حد بعيد، حسب وصف المفكر علي عزت بيجوفيتش في كتابه (هروبي إلى الحرية)، ولا توجد هزائم غير مستحقة. فالناس يغادرون مسرح التاريخ مع المصير الذي يستحقونه. والأمر نفسه ينطبق على الحضارات، فهي لا تخضع لموت مفاجئ غير طبيعي، وإنما تموت بسبب أمراضها الخاصة.

ولم يكن اجتياح البرابرة لأي حضارة، ومنها الحضارة الإسلامية، إلا مجرد رصاصة الرحمة، لحضارة فقدت القدرة على الحياة، وعلى حماية نفسها والدفاع عنها. ولا توجد هزيمة إلا وتحمل الأمة المهزومة قدرا من المسؤولية عنها. ولا يوجد أبرياء في مزبلة التاريخ، فالضعف خطأ، والضعفاء خارجون عن الأخلاق من وجهة نظر التاريخ.

وعندما تدخل الأمم التاريخ تكون في حالة ثراء أخلاقي وفقر مادي، وعندما تخرج منه يكون الحال عادة عكس ذلك تماما. هذا الأمر ثابت في تاريخ جميع الشعوب الكبرى تقريبا: قدماء الفرس والرومان والإغريق والعرب، بل والأمم الغربية الحديثة. وهو ما يؤكد عليه مؤرخون بارزون كابن خلدون، ومفكرون نابهون كمالك بن نبي. والأذكياء بمختلف درجات ذكائهم يستفيدون من التاريخ، ويحاولون بشتى الوسائل أن لا يكرروا الأخطاء، التي بدورها ستوصلهم إلى نفس النتائج التي باء بها من سبقهم، وعلى عكس هؤلاء الأغبياء والحمقى، فهم يكررون أخطاء الماضي رغم يقينهم أنهم سيصلون إلى نفس نتائج من سبقهم، ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات:٥٣] .

والهجرة إلى الماضي، وإلغاء الحاضر، وضعف النظرة إلى المستقبل هي تصرفات انسحابية، والوقوع في أسر الحاضر مع تجاهل رصيد

خبرة التاريخ، والقعود عن التأهب للمستقبل هي أفعال انتهازية، أما القفز إلى المستقبل من دون وعي دقيق بالواقع المعيش، وفهم عميق لدروس الماضي فهي سلوكيات انتحارية. وهذا ما نجد بعضا منه يتقاسمه بني قومنا، في حالة من العمى الحضاري، الذي يجعل الحليم حيران.

والإسلام بالنسبة إلى غالبية المسلمين ليس مرحلة تاريخية تجئ ثم تنقضي، بل هو منهج حياة، مستمر باستمرار الزمان، وممتد بامتداد المكان. والإسلام هو ماضي الأمة وحاضرها ومستقبلها إن أحسنت التعرف عليه وتمثيله أحسن تمثيل، ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلَامُ﴾ [آل عمران:١٩] ، ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآَخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران:٨٥] .

وفي هذا السياق يؤكد «ديل بيرنز» في كتابه (المثل السياسية) على المكانة التي يحتلها التاريخ في حياة الأمم في كل أحوالها فيقول: «إن التاريخ هو تفسير للكيفية التي نفعل بها ما نحن فاعلون، واهتمامنا بما حدث يرجع أكثر ما يرجع إلى رغبتنا في فهم ما هو حادث الآن، وهذه الرغبة بدورها نابعة إلى حد كبير من حاجتنا إلى التأثير فيما سوف يحدث في المستقبل، وعلى ذلك يصبح التاريخ عديم الجدوى ما لم يمدنا بجانب من المعرفة له قيمة عملية، فمهمته أن يبين لنا الوسيلة التي تمكننا

من أن نجعل من الحاضر مستقبلا أفضل، وذلك بفهم الطريقة التي أصبح بها الماضي حاضرا، ويجب أن ننظر إلى الماضي كأنه كان ذات يوم مستقبلا، وأن نفكر فيما حدث من تغير كأنه كان يتحرك أمام نظرنا لا كشيء ذهب وانقضى. ونحن إذ نلتفت إلى الوراء فإنما نفعل ذلك كي نتجه بأبصارنا إلى الأمام».

هل يعيد التاريخ نفسه؟ سؤال توقف أمامه الفلاسفة والمفكرون، وكانت لهم وجهات نظر متباينة، فهناك من يرى أن التاريخ يعيد نفسه بصورة قد تصل إلى حد التطابق، وهناك من يرى أن التاريخ لا يعيد نفسه، مهما تبدى للبعض أنه كذلك من خلال تشابه بعض أحداثه، وأن أي حدثين مهما بدا التشابه بينهما واضحا، إلا أنهما مختلفان تماما، وهناك من يحاول التوفيق بين الرأيين السابقين. ومع هذا يبقى التاريخ صانعا للتحدي سواء في حال تشابه أحداثه الحاضرة بأحداثه السابقة أو عدم تشابهها.

وهذا ما ردده «توينبي» من خلال أصوات كثير من المؤرخين العظماء عندما تساءل: هل يعيد التاريخ نفسه؟ وقد أورد إجابة لكارل ماركس عن هذا التساؤل، قالها في القرن التاسع عشر، وقد أجاب إجابة ذكية لاذعة، مذكرا إيانا بأن التاريخ يكرر نفسه، بل ويكرر نفسه مرتين: مرة باعتباره (مأساة)، ومرة باعتباره (ملهاة) ساخرة.

النـــــــاس مثل زمانهم قُدّ الحذاء على مثاله
ورجال دهرك مثل دهرك في تقلبـــــه وحاله
وكذا إذا فسد الزمــــــان يُرى الفساد على رجاله

إن المنتصريـن هـم كتّاب التاريـخ، كمـا يقـول «ونسـتون تشرشـل»، والأدق هـو أن التاريـخ يعيـد كتابتـه باسـتمرار منتصـرون متتابعـون، وأن بقـاء المنتصريـن فـي السـلطة التـي يفـوزون بهـا هو الشـرط الضـروري، إن لـم يكـن الشـرط الكافـي بالضـرورة، لتحصيـن سـرديتهم مـن إعـادة كتابـة أخـرى، وليسـت أخيـرة.

والتاريـخ هـو المـرآة التـي تتجلـى فيهـا سـنن الله تعالـى فـي الكـون عامـة، وفـي الاجتمـاع البشـري خاصـة، ولهـذا عنـي القـرآن عنايـة بالغـة بلفـت الأنظـار وتنبيـه العقـول إلـى قصـص الأمـم السـابقة، وأورد كثيـرًا منهـا علـى وجـه التفصيـل فيمـا هـو متعلـق بالاتعـاظ والعبـرة. ويؤكـد القـرآن أن قِـدَمَ فكـر مـا ليـس دليـلا علـى خطئـه، ولا يوجـب صحتـه، وإن القِـدمَ يجـري فـي الأمـور الماديـة، ولكـن حقائـق الوجـود لـن تصبـح قديمـة متروكـة مهمـا مضـى عليهـا مـن الزمـان.

ويعتبـر التاريـخ هـو المـادة الخـام التـي يسـتقي منهـا علـم الاجتمـاع معلوماتـه لفهـم الظواهـر الاجتماعيـة الحاليـة لوجـود علاقـات سـببية بيـن الأنمـاط الاجتماعيـة بيـن الماضـي والحاضـر. وكمـا إن «الماضـي مسـتودع بـذور المسـتقبل ومـرآة تعكـس شـؤونه، فالمسـتقبل حصيلـة

بذور الماضي ومرآة آماله»، كما يقول بديع الزمان سعيد النورسي. ولهذا نجد أن حركة الزمان لا ترحم الواقفين الجامدين، ولا تنتظر المترددين الخائفين، الذين يعيشون عصرا بوسائل عصور خلت، ولا يميزون بين العنصر الأزلي والعنصر التاريخي في الدين. والتاريخ للأمة كالذاكرة للفرد، والفرد يعاب بكثرة النسيان ويمدح بقوة الذاكرة، وليس يقال لقوي الذاكرة: منشغل بالماضي، كما لا يوصف كثير النسيان بأنه مهتم بالمستقبل. ويُعدُّ التاريخ معملا لدراسة العلاقات بين السبب والنتيجة في السياسة العالمية ومجالا يمكن أن تستقصي منه صحة بعض الفروض النظرية، أي أنه يقدم المادة الأولية اللازمة لصياغة واختبار بعض الفروض، كما يعطي عمقا لدراسة الحاضر. فالأحداث التاريخية السابقة لا تنتهي بمجرد زوالها الوجودي، وإنما تظل حية في خبرة الأمة وذاكرتها.

وكمثال حيٍّ يمكن أن نقدمه في هذا السياق، هو ما تقوم به (السلفية الجهادية) من أعمال، فهي تعيش فقرا مدقعا في الوعي بالزمان والمكان والإمكان، ولا تحاكم الوقائع اليوم بنصوص الشرع وقيَمه الكلية، بل بصور تاريخية، وفهومات فقهية، كانت في جلها تراجعا عن قيم الإسلام السياسية، وتكيُّفا مع واقع الدولة السلطانية القهرية في تاريخ المسلمين.

وقد برهن التاريخ على أن مسألة فرض الثقافات بالقوة أثبت فشله،

ولنا في تجربة الاتحاد السوفييتي السابق بالقرم والقوقاز وآسيا الوسطى عبرة وعظة. والمزاوجة بين غطرسة القوة المفرطة وتسريب القيم لم تفلح هي أيضا في إزاحة الثقافات المحلية أو التعمية عليها، والتجربة الأمريكية الراهنة تقدم شاهدا جليا ودليلا دامغا على هذا. وحتى لو كان هذا ممكنا في حقب زمنية قديمة، فإنه لم يعد مستساغا مع إدراك الشعوب لحقوقها، ووعيها بثقافتها، وتمسكها بجذورها الحضارية. أما التغيير الطوعي والتدريجي، الذي يمكن أن تحدثه الدعوات والتبشير الديني، أو الاحتكاك الطويل بالمجتمعات الأخرى، فهو الأكثر وقعا وتأثيرا في هذا المضمار، وهذه مسألة تختارها الشعوب بمحض إرادتها، وقد تعززت فرصها مع ثورة الاتصالات الرهيبة، وفق تعبير الدكتور عمار علي حسن. والتاريخ لا تصنعه التلقائية الآلية، ولكن تصنعه الإرادة الإنسانية. كما إنه (أي التاريخ)، ممتد من الدنيا إلى الآخرة، وهو ليس المطلق الحتمي الضروري، وإنّما هو فعل الإنسان وكسبه، ونجاحاته وإخفاقاته، كما يصفه بذلك الأستاذ الدكتور فتحي ملكاوي، والتاريخ هو المسؤول في نهاية المطاف عن نتائج هذا الفعل. لذلك فالإنسان هو محور التاريخ، وهو المكلف بأن يحقق إرادة الله في التاريخ.

إن الزمن إناء وهبه الله للإنسان ليملأه بالخيرات أو الشرور، كما

يؤكد على ذلك الأستاذ الدكتور فؤاد البنا، وهو أحد أعراض أزمتنا الفكرية المعاصرة، حيث الهروب من المسؤولية والتنصّل عن الواجب؛ من خلال الارتماء في جُبّ التبرير والتّلفُّع بمنخال الذرائعية، وذلك بتعليق أخطائنا على مشجب الزمن.

والليالي من الزمان حبالى مثقلات يلدن كل عجيبة

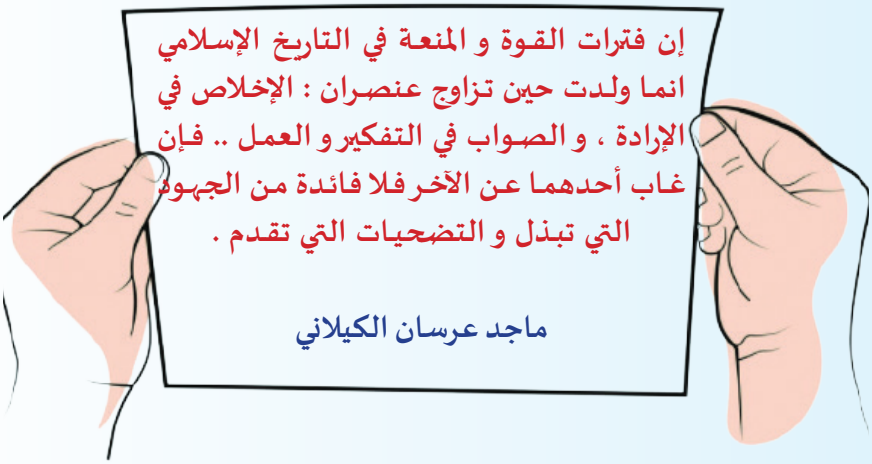

المرايا اللغويّة...ما نجيد فهمه، نجيد التعبير عنه

يقول الله جل جلاله: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة:٣١]، البداية كانت من هنا، من تعليم الله لآدم الأسماء كلها، كان هذا في الملكوت الأعلى، ومن حينها بدأ تاريخ البشرية في التعليم والتواصل وطريقة تسمية الأشياء، فالله -سبحانه -قد علّم آدم اللغة بكل مقوماتها، فضلا عن تعليمه طبائع الأشياء التي تشير إليها تلك الأسماء، إذ الأسماء بغير معرفة مسمياتها تفقد دلالاتها.

فاللغة سِمَةٌ إنسانية لجنسنا البشري، فهي منهج ونظام، وهي خاصية إنسانية بدليل أنك لو أتيت بثلاثة أشخاص: مثقف عربي، ومثقف فرنسي ومثقف إنجليزي، وقارنت بين طريقة كل منهم في التفكير والتعبير والاتصال، لوجدت أنهم يمثلون مناهج ثلاثة في التفكير، والتعبير، والاتصال اللغوي، حتى لو كان هؤلاء الثلاثة مسلمين، أو غير مسلمين، حسب وصف الدكتور علي مدكور.

واللغة أساس الحضارة، إنها (الغِراء) الذي يلمّ شمل الناس، كما إنها أول سلاح يشهر في أي صراع. واللغة ليست مجرد أداة رمزية، أو وعاء للفكر والثقافة، كما هو متداول ومتعارف عليه بين أهل اللغة والفكر والثقافة، بل هي جوهر التفاعل الحضاري من منطلق العملية الاتصالية. فاللغة تعبير عن حقيقة حضارية، فعلاقة اللغة بالفكر، أو بمعنى أدق، علاقة الألفاظ بالفكر علاقة إنسانية ديناميكية،

لا تخطئها عين اللبيب الأريب.

واللغة ليست مجرد وسيلة للتفكير والتعبير والاتصال، وإنما هي منهج ونظام للتفكير والتعبير والاتصال. وهي ليست مجرد شكل لموضوع، أو مجرد وعاء خارجي لفكرة، أو لعاطفة أو لقيمة ... إنها علاقة دالة داخل الكلمة المفردة، أو بينها وبين غيرها من الكلمات بما يشكل نظاما ونسقا خاصا له قوانينه الداخلية الخاصة. وهذا هو السر في أن أهل كل لغة يهتمون بدرجات متفاوتة في تعليم الناشئة قواعد لغتهم أي نظامها الرمزي والصوتي والدلالي، ومن يتقن أكثر من لغة يدرك ما نرمي إليه.

واللغة منهج للتفكير ونظام التعبير والاتصال، فاللغة لا تعبر فقط عن الأفكار، بل تشّكل الأفكار، فالتفكير ليس إلا (لغة صامتة)، فاللغة تولّد الفكر، والأفكار تولد مكسّوة لا عارية. (فكل كلام يبرز وعليه كسوة القلب الذي برز منه)، كما يقول ابن عطاء الله السكندري. والمتعمقون في اللغة والفكر معا، يفهمون ويدركون بشكل واضح طبيعة التزاوج والتناغم بين اللغة والفكر، أكثر من غيرهم، ممن لهم اهتمام بأحد الفرعين (اللغة / الفكر).

واللغة نظام دقيق يتطلب الكثير من المعارف والمهارات، وفق توصيف الدكتور علي مدكور لها، فعملية الاتصال بين المتكلم والمستمع، أو الكاتب والقارئ، تمر بعدة خطوات في غاية الدقة،

وهي على النحو التالي: فالمتكلم أو الكاتب لا بد أن تكون لديه (فكرة) يريد التعبير عنها؛ ثم يختار لها (الرموز أو الكلمات) المناسبة للتعبير عن الفكرة، ثم يضع هذه الكلمات في نظام معين من (الجمل والعبارات والفقرات)، ثم ينطق المتكلم أو يكتب الكاتب الأفكار التي لديه، مراعيا حسن الإلقاء أو قواعد الكتابة الصحيحة، ومراعيا أيضا في كل ما سبق نوع المستمع أو القارئ ومستواه العمري والثقافي، وعندئذ تنتقل الفكرة أو الرسالة إلى المستمع أو القارئ، فيتعرف المستمع على الرموز (الكلمات) المسموعة، ويتعرف القارئ على الرموز المكتوبة، ثم يترجمان الرموز إلى معان يظنان أنها المقصودة، ثم يقومان بفهم هذه المعاني وتحليلها وتفسيرها ونقدها وتقويمها.

وعندئذ يمكن أن نقول: إن الفكرة قد وصلت من المتكلم إلى المستمع أو من الكاتب إلى القارئ، وهذا هو ما يجعل العقول تختلف في تفسير الكلام المسموع أو المكتوب، لاختلاف عمليات الترميز، ومهما كان وضوح الرسالة إلا أنها لا تستطيع أن تكون بنفس وضوحها عند من يسمعها أو يقرؤها، كما هو الحال عند قائلها أو كاتبها، بل ربما تعددت الاختلافات بعدد من يسمعونها أو يقرؤونها.

وهذا ما فهمه الدكتور زكي نجيب محمود وهو يتأمل في قوله تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ

إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى﴾ [النَّجم:٢٣]، فقد قال كلاما له وجهاته، فالإنسان ربما استخدم اللغة على نحو يجعلها بغير سلطان، أي بغير قوة، وقوة اللغة إنما تكون في دلالتها، وفيما تثيره تلك الدلالة عند السامع من نزوع نحو أن يؤدي عملا ما، فألفاظ اللغة، مفردة أو مركبة في جمل، تتفاوت تفاوتا بعيد المدى بين من يستخدمونها، من حيث قدرتها على التعبير من جهة القائل، وعلى التعبير من جهة المتلقي، وكأن الدكتور زكي يشير من قريب أو من بعيد إلى المهمة الأساسية للرسل جميعا (عليهم سلام الله)، وهي أن يكون بلاغهم مبينا، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النور:٥٤]، وفي قوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النحل:٣٥].

لماذا تتكون «لا» من حرفين، بينما تتكون «نعم» من ثلاثة أحرف؟ ليس هذا في اللغة العربية فقط، بل حتى في اللغة الإنجليزية (Yes /No)، وربما في لغات أخرى غيرهما. ربما يرجع ذلك إلى أن قول «لا» يتطلب منك خطوتين: التفكير ثم الرفض. أما قول «نعم» فيتطلب منك ثلاث خطوات: التفكير ثم الموافقة ثم التنفيذ.

إن كانت حياتك مليئة (باللاءات) فأنت إنسان مكفهر، متشائم،

عنيد! وإن كانت حياتك خالية تماما من (اللاءات) فأنت إنسان سبهلل، رخوي، مائع! إذا أردت أن تعرف هل أنت إنسان سمح أم لا؟ فانظر أيهما أكثر نطقا على لسانك، وأيهما أوفر رصيدا في قاموسك: نعم أم لا.

إن اللغة كائنٌ عجيب، فهي تحمل دائما في طيها سرا مكنونا، ومن أغرب أسرارها، أنها لا تؤدي لك وظيفتها إلا إذا جاوزتها إلى شيء خارج عنها، أي تنتقل من مجرد الاستماع إلى اللفظ وتكراره إلى العمل بمقتضاه، حسب وصف الدكتور زكي نجيب محمود، ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ القَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [الزُّمر:١٨] ، الشاهد هنا (هـ).

والروابط متينة بين اللغة والفكر، كما أسلفنا، والعلاقة بينهما أكبر من احتكاك خارجي. إنها علاقة من الداخل، ولا نستطيع ـ بأي حال من الأحوال ـ أن نقضي على هذه العلاقة، ونفصل العنصرين بعضهما عن بعض، فالعلاقة التي تربط الفكر بالكلمة علاقة حميمية، فالفكر والكلمة جسم واحد، فلا يحصل فكر دون لغة، ولا تحدث لغة لا تكون ذاتها فكرا.

وبين الفكر واللغة علاقة وثيقة لأن الفكر يبحث في اللغة عن صورة تعبر عنه، واللغة تبحث في الفكر عن فعل عقلي معادل لها. ومن العبث فصل الأفكار عن الألفاظ المعبرة عنها فصلا تاما، لأن الفكر والتعبير يسيران جنبا إلى جنب.

والبيان نتاج تفكير، والتفكير بدوره يعمل على تنظيم وصوغ اللغة، لتتسع لشتى مناحي الحياة العقلية، والوجدانية، والاجتماعية، في صورة عبارة لغوية، وبذلك يمكن تحديد وجه العلاقة التبادلية بين التفكير الذي (يصوغ اللغة)، وبين اللغة التي (توجه التفكير)، كما عبّر عن ذلك كل من الدكتور سيد أحمد عثمان والدكتور فؤاد أبو حطب.

وتطور اللغة وتجددها يبرز من خلال أمور ثلاثة، كما يحددها الدكتور ماجد عرسان الكيلاني، هي: الأشياء والمعاني والأوعية اللغوية. فالأشياء تبدأ بالتطور، حيث تظهر في البيئة أشياء جديدة، تؤدي إلى ظهور علاقات جديدة، وهذه العلاقات بدورها، تقود إلى معان جديدة، كما تقوم المعاني الجديدة بالتطور إلى أوعية جديدة، وذلك من خلال عمليات الاشتقاق بالنسبة للغة العربية، أو التركيب بالنسبة إلى الإنجليزية، وجميع هذه العمليات التطورية والتجديدية تؤدي إلى ظهور علم جديد أو فن جديد.

وتعد اللغة هي المُقوِم الأساسي لإنسانية الإنسان، ولذلك يُعرّف الإنسان بأنه كائن لغوي، يسمع ويقرأ ويفكر عن طريق اللغة. والكلمات ليست بأكثر من رموز للأشياء. ومع أن الإنسان قد لا يعرف حقائق الأشياء التي يتعامل معها، إلا أن معرفته بأسمائها تدله عليها، فإذا به يكتشفها شيئا فشيئا. وتمثل اللغة -أي لغة-وسيلة

لنقل الأفكار والمعاني والمعارف بوصفها أداة للتجربة وللعقل معا، حسب وصف الأستاذ الدكتور أحمد الدغشي لها. أما الدور الرئيس المنوط باللغة فيتجسد في تخليد المعاني التي يتفق عليها الناس في كل جيل وفي كل جماعة.

يذكرون أن حرا رائدا أتى «كونفوشيوس» حكيم الصين فقال له: أريد أن أعلِّم الناس الحرية، فكيف الطريق إلى ذلك؟ فقال كونفوشيوس: عليك باللغة.أتقنها. وهو يعني هنا أن إتقان اللغة يُعد إحدى أهم العوامل المساعدة في تحرير الناس، فاللغة هي التي تبرز الفوارق الجليّة بين الحرية والعبودية، وهي التي تضع المقياس الواضح للفرق بين الحر والعبد، فإذا أدرك الإنسان سمو الحرية ووضاعة العبودية، وتحوّل هذا الإدراك لديه إلى سلوك فقد صار الإنسان حرا.

ولهذا فإن لكل لغة عقلها وإطارها الفكري الذي يعطي لمفاهيمها دلالات وظلالا لا يمكن أن تتطابق مع أي لغة أخرى، ومن يتقن أكثر من لغة يدرك ما أعنيه من الاختلاف بين لغة وأخرى. واللغة مشحونة بالقيم التي بُثّت فيها خلال العصور التي استخدمت فيها، ومن مجموع تلك القيم المبثوثة في ثنايا ألفاظ اللغة (العربية أو غيرها من اللغات) يتكون وجدان الأمة، أي أمة.

واعتياد اللغة يؤثر في العقل والخلق والدين تأثيرا قويا بيِّناً، حيث

إن من أهم ما يميز الإنسان في مجال اللغة، هو سرعة اكتسابه ذوقا خاصا في لغته، بحيث يعرف ابن اللغة ما يجوز وما لا يجوز استعماله من تراكيب لغوية، ومن هنا نرى الفرق بين ابن اللغة وبين الأجنبي الذي يتعلم تلك اللغة، ففي الوقت الذي ترى ابن اللغة قادرا على تنويع التراكيب للمعنى الواحد بتذوق لغوي يفرّق به بين ما يصح وما لا يصح، ترى الأجنبي الذي تعلّم تلك اللغة مقيّدا بما سمعه أو قرأه، دون أن يكون له ـ إلا بعد ممارسة طويلة ـ ذلك الذوق اللغوي الذي يمكّنه من التصرف المبتكر في حدود ما يجوز قوله عند أهل اللغة الأصليين، كما يؤكد على ذلك د. زكي نجيب محمود.

وفي إشارة ذات دلالة يخبرنا الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن: (كل لسان بإنسان)، وهو يعني هنا أن إتقان الإنسان للغة أخرى يصيّره أكثر من واحد، بمعنى أنه كلما كثرت اللغات التي يتقنها الإنسان كلما أصبح إنسانا بعدد اللغات التي يتقنها، فبقدر ما تمتلك من اللغات بقدر الأشخاص أنت. وهذا لا يتأتى للإنسان إلا بعد أن يكون متمكنا في لغته الأم، فالعاجز في لغته الأم هو أعجز عن غيرها من اللغات، وإن أصبحت له رطانة، فهي شنشنة نعرفها من أخزم.

ولم يعد مصطلح اللغة مقتصرا على الألفاظ التي نرددها، بل صار لكل مجال من مجالات الحياة لغة، وجزءا مما يجعل الإنسان خبيرا

في مجاله هو تمكنه من لغة ذلك المجال، وإن جزءا من أساس حكمنا بأن إنسانا ما يحذق مجالا معينا يكون قائما على ملاحظتنا أن ذلك الإنسان متمكن في اللغة المتداولة في ذلك المجال، أي متمكن في آداب ذلك المجال.

واللغة ليست صناعة فقط، اللغة طبع، اللغة مَلَكة، اللغة وجدان. (اللغة) -يا صديقي العزيز- طريقة حياة، قبل أن تكون لغة. فاللغة العربية للعربي المسلم لغة الروح، ألم ينزل بها الروح الأمين (جبريل عليه السلام)، على روح الأرواح (محمد ﷺ)، بغذاء القلوب والعقول (القرآن الكريم): ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الكِتَابُ وَلَا الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشُّورى:٥٢]، وهي لغة العقل والعلم والوجدان، ولولا ضعف بنيها لكان لها شأن، ولسبقت غيرها من اللغات في جميع المجالات.

إن لغتنا العربية في حاجة إلى أن نكون بارين بها من خلال نقل جمالها وقيمها إلى الناطقين بها وغير الناطقين بها، إذ لا معنى للغة إن لم تستطع أن تنقل حمولتها إلى الآخرين من أبنائها وإلى اللغات الأخرى، وتحمل معها قيمها.

وخلاصة القول: إن اللغة هي محرِّض التفكير، ومحرِّك الاجتهاد والتجديد، ووسيلة التفاهم والإقناع، ومفتاح الإقلاع الحضاري؛ وإن

هـذا البنـاء الحضـاري التاريخـي الضخـم والميـراث الثقافـي سـوف يبقـى محنطـاً ومغلقـاً ومسـدوداً أمامنـا إذا لـم نمتلـك المفتـاح الأسـاس للولوج إليـه مـن البـاب الرئيـس؛ والمفتـاح للدخـول لـكل غرفـة فيـه والتعـرف علـى مجالاتـه وتنوعهـا، هـو اللغـة.

فاللغـة، فـي البـدء والانتهـاء، هـي الثقافـة، وهـي الحضـارة، وهـي العلـم، وهـي التنميـة، وهـي التفكير، وهـي التعبيـر. هي الشـخصية، بكل قسـماتها، وسـماتها، وذاكرتهـا، وفلسـفتها، ورؤيتهـا، وهـي تمثـل أرقـى أنـواع القـدرة علـى الاختيـار والانتقـاء، وتشـكل الأداة الأوسـع والأرحب لممارسـة عمليـات التفكيـر والتعبيـر والتفاهـم، فـي فضـاءات كبـرى تتجـاوز عالـم المحسوسـات. هـي (مـرآة الأمـة)، تعكـس حركتهـا وتاريخهـا وحاضرهـا وقيمهـا ووجهتهـا المسـتقبلية؛ وهـي مرقاتهـا فـي الوقـت نفسـه، لأنهـا المحـرك الأسـاس للانبعـاث والتجديـد والاجتهـاد، والتغييـر، والتأثيـر، والتعلـم، والتبـادل المعرفـي، والكسـب العلمـي، وبنـاء الـذوق الفنـي، وصناعـة النسـيج الاجتماعـي، والعامـل الأسـاس فـي تشـكيل الأمم، والسـبب الأسـاس وراء اضمحلالهـا، وإذا لـم تـدرك العلاقـة التبادليـة بيـن اللغـة والأمـة تحصـل الكارثـة الثقافيـة والمعرفيـة؛ والتاريـخ خيـر شـاهد علـى ذلـك، وفـق تعبيـر الأسـتاذ عمـر عبيـد حسـنة.

واللغـة تَضعُـف وتتراجـع بضعـف الأمـة؛ والأمـم تتقهقـر وتتأهـل للعمالـة الثقافيـة والعلميـة بتراجـع اللغـة وعزلهـا عـن العقـل والكتـاب والمنهـج

والمعهد والجامعة والمدرسة والأسرة، والإذاعة والتلفزيون وسائر وسائل الإعلام والإعلان، التي يناط به إجراء العمليات والمعادلات والموازنات التفكيرية، ذلك أنه من المسلمات علاقة التعبير بالتفكير؛ وعلاقة اللغة بمفرداتها ومخزونها النفسي والمعنوي وإيقاعها ووقعها على الحس والنفس والإدراك بالتفكير وآلياته، وكيفياته، ورقيه ونموه، وهبوطه وارتقائه. فاللغة نافذة الشخصية، ومرآة العقل: «تكلم حتى أراك»، أو هي الشخصية بكل مواصفاتها، وطريقة كلام المرء وأسلوبه في اختيار عباراته، مرآة حقيقية لعلمه وفنه وذوقه. غربة اللغة العربية بين أبنائها تبعث في النفس الأسى والأسف، والذين يعملون في التربية والتعليم، أو التعليم العالي يدركون ما أرمي إليه، وما أقصده بغربة اللغة العربية بين أبنائها وأجيالها المعاصرة والمستقبلية.

فاللغة كوعاء للفكر وكأداة للتواصل، أصابها التآكل في أغلب إن لم يكن كل مهاراتها، قراءة وكتابة وتعبيرا وإملاء وخطاً، وهذا أمر يُشعِر المرء بالمرارة والأسى والأسف. فأبناء اللغة العربية الذين درسوها على مدى اثني عشر عاماً (المرحلة الأساسية والثانوية) لا يستطيعون التكلم بها بشكل صحيح، ناهيك عن الكلام بها بشكل فصيح، ولا يتقنون خطها وإملاءها بشكل سليم، فخطوطهم لا تُقرأ، وأخطاؤهم الإملائية فاحشة لا يمكن السكوت عنها، أما التعبير بها

قولا أو كتابة فهي مما لا يوصف ولا يعبر عنه، لكونه قد فاق ما يقال. وما يقال عن خريجي الثانوية يقال عما بعدها من المراحل (الجامعية والدراسات العليا)، ولا يمكن استبعاد حتى خريجي أقسام اللغة العربية في الجامعات إلا ما ندر منهم.

هذا الاغتيال المسكوت عنه، والوأد المتغافل عنه، ليس في صالح اللغة العربية ولا في صالح الهُوية العربية الجامعة، وله ما بعده من الانتكاسات، التي تبدأ باللغة لتتبعها بقية المجالات.

وفي مقابل ذلك، نجد اهتماما مبالغا فيه بلغات أخرى على حساب اللغة العربية (اللغة الإنجليزية كمثال)، بل ويأخذ من رصيدها، ويحصرها في حيز ضيق كلغة مرتبطة بدين ولا تمت للعلم والحضارة والمعاصرة بصلة، ويتم ذلك من خلال تشجيع تعلم اللغات الأخرى، ودعم هذا التوجه، وافتتاح معاهد لتعلمها، بل وسعي بعض المدارس الخاصة للتعليم بها، منذ الصفوف الأولى للسلم التعليمي، على رغم ما في ذلك من خطورة على اللغة الأم للطالب، وإفراغ لهُويته، ونحن هنا لا نعارض تعلم اللغات الأخرى، بل نحن مع ذلك، شريطة ألا تكون على حساب اللغة العربية، ولا سحبا من رصيدها، وأن يتم السعي أولا للتمكن من اللغة العربية، ثم بعد ذلك لا حرج من تعلم لغات أخرى، أما أن يتقن الطالب اللغة الأجنبية قبل لغته العربية فهنا تكمن المشكلة.

وقد تحدث الدكتور زكي نجيب محمود عن صلة رحم بين ألفاظ اللغة العربية ومشتقاتها، على خلاف اللغة الإنجليزية، فاللغة الإنجليزية لا توجد بين ألفاظها صلة رحم، وعلى المتعلم للإنجليزية في هذه الحالة أن يحفظ كل نقطة بمعناها، مستقلة عن أخواتها، وأما في اللغة العربية فإذا عرفت (الجَدّ) عرفت شجرة الأسرة بكل فروعها، من الإخوة إلى أبناء العمومة والخؤولة، إلى الأحفاد وما بعد الأحفاد.

وإذا استحضرنا ما للغة من أثر في التفكير، سواء في الأوعية التي توفرها لاحتضان الأفكار، أو في الأبعاد التضمينية التي تتخلل عباراتها، أدركنا أن مقصد حفظ العقل يرتبط برعاية اللغة العربية بتهذيبها القرآني. ولسان العرب هو المترجم عن مقاصد الشرع، كما يقول الشاطبي شيخ المقاصد في موافقاته، ومن هنا، فإن الشريعة (لا يفهمها حق الفهم إلا من فهم اللغة العربية حق الفهم، لأنهما سيان في النمط، ما عدا وجوه الإعجاز، فإذا فرضنا مبتدئا في فهم العربية فهو مبتدئ في فهم الشريعة، أو متوسطا، فمتوسط في فهم الشريعة...)، وهكذا، فكلما كان أمكن في اللغة العربية، كان أقدر على إدراك مقاصد الشريعة إدراكا سليما.

ويقول الإمام الشافعي: (لا يحيط بلغة العرب إلا نبي). وليس مصدر ذلك في تقديري (والكلام للدكتور عبد الكريم بكار)،

غزارة مفردات اللغة، وتنوع أساليب استخدام تلك المفردات على نحو جوهري، وإنما مصدره طبيعة التجدد المستمر في مدلولاتها، وما تتسم به من مرونة فائقة، وما تحمله من إمكانات التنويع وضروب التفريع وأشكال التحول.

والكلام هو ناتج السمع، واللغة ناتج البيئة، كما يشير إلى ذلك الشيخ الشعراوي، فالله سبحانه وتعالى علّم آدم الأسماء كلها، وهذا العلم لا يمكن أن يأتي إلا إذا كان آدم قد سمع من الله سبحانه وتعالى، ثم نطق، فأنت إذا أتيت بطفل عربي، وتركته في لندن مثلا، فتراه يتكلم الإنجليزية بطلاقة، ولا يفهم كلمة واحدة من اللغة العربية، والعكس صحيح، وإذا أتيت بطفل إنجليزي، وتركته في بلد عربي، فإنه يتكلم العربية، ولا يعلم شيئا عن الإنجليزية، إذن فاللغة ليست وراثة ولا جنسا ولا بيئة، ولكنها محاكاة يسمعها الإنسان فينطق بها، وإذا لم يسمع الإنسان شيئا، أو كان أصما، فإنه لا يستطيع النطق بحرف واحد.

والمستشرقون الذين يدّعون أنهم درسوا اللغة العربية، نعم، فهم قد درسوها صناعة، ولكنها عزّت عليهم مَلَكَة؛ لأن اللغة ليست صناعة فقط، اللغة طبع، اللغة مَلَكَة، اللغة وجدان، وهذا ما لم يستطع المستشرقون الحصول عليه، ولا التمكن منه وإن رطنوا بلغتنا العربية، فإن الأمر لم يتجاوز الصناعة والرطانة.

إن اللغة العربية واحدة من اللغات التي تتسم بسمات اللغات الحيّة المعاصرة، بل ربما هي الأوفر حظا، والأكثر ثباتا، والأعمق رسوخا على مدى التاريخ، فهي من أحسن اللغات على الإطلاق، لما امتازت به من خصائص فضّلتها على كثير من اللغات الأخرى، لسعة مدرجها الصوتي في توازن متجانس، وانسجام موسيقي، ولثبات أصواتها على مر العصور، إلى جانب أنها تجمع بين الواقعية والمثالية، كما إن أوزانها تتواكب كقطع موسيقية، لتسبق المعاني إلى القلب عن طريق الحواس، حسب تأكيد الدكتور محمود سفر.

وأعتقد أن غربة اللغة العربية في هذا الزمان عائدٌ إلى غربة الأمة الحضارية، وغربة الدين الذي تحمله، فقوة اللغة من قوة من يحملها، ورقيها من رقي حملتها، وتطورها من تطورهم. وليس أمامنا كحراس على أبواب التربية والتعليم، كمعلمين وأساتذة جامعات، ويأتي في مقدمة أولئك معلمو اللغة العربية وأساتذتها، أقول ليس أمام الجميع إلا أن يتحملوا المسؤولية التاريخية تجاه لغتهم، من خلال إصلاح المعوج من اللغة في أبنائهم وطلابهم في المدارس والجامعات.

وسيبقى الحب الخالد للغة العربية، هو التمكين لها لتصبح لغة حياة، بكل ما تعنيه الكلمة من معنى واتساع، وسيبقى التغني بالعربية شعرا ونثرا، هو العمل على تحويلها إلى خط جميل، وإملاء سليم،

وتعبير فصيح، وقراءة طليقة، أما غير ذلك فيعني أننا نغني على غير (ليلانا) ونسلم على غير (ضيفنا) ونتوجه إلى غير (قِبلتنا). وقف أبلغ من نطق بالضاد ﷺ، في اليوم التاسع من ذي الحجة قبل أكثر من ١٤٣٠ عاما في أعظم أيام الله (يوم عرفة)، في أشرف البقاع (صعيد عرفات)، ليتلو أبلغ بيان سمعه العالم، وأفضل ميثاق لحقوق الإنسان خطته الدساتير (خطبة الوداع). كلام خرج من أطهر قلب، في أفضل يوم للقلوب، وفي أروع مكان تهفو إليه الأفئدة، ليروي قلوبا عطشى لهذا الغيث القلبي والروحي، فلم يكن هذا الكلام حديثا يتعلق باللسان والأذن، بل هو حديث القلوب إلى بعضها، وحديث القلوب سريع الوصول، سلس الدخول، سهل الوصول، معين على الاتباع والعمل.

حديث الروح للأرواح يسري فتدركه القلوب بلا عناء

يقولون إن اللغة أداة البيان، ولو أحسنوا التعبير لقالوا: إن اللغة بريد القلوب. فاللغة تترك أثرها في ضمائر الناس، وتشكل أحيانا طريقة تفكيرهم. وهذا ما صنعه سيد البلغاء وأكمل الفصحاء صلوات ربي وسلامه عليه، فقد صنع بهذه اللغة عظماء الدنيا، وسبك بهذه اللغة معادن الرجال الأبطال، وأوجد بهذه اللغة ومن خلالها سلسلة ذهبية من الرواد النبلاء، كان قليل الكلمات ولكن كلماته كانت واسعة المعاني مكتملة المباني، كان قوله فصلا فارقا، ولذلك صارت

كلماته دستور أمة ومنهاج حياة، فكان ﷺ وكلماته الخالدة روح الحياة وحياة الروح.

إن اللغة العربية التي نطق بها الحبيب ﷺ لغة دقيقة جدا، فهي غنية بالمترادفات، ولكل لفظة فيها معناها الدقيق الذي لا ينوب عنه فيه غيره، ومن مفرداتها ما يعبر عن الشيء وضده بآن واحد، ولا يحدد المراد إلا السياق، أو ما يحيط بالحادثة من واقعة، وللحركة في هذه اللغة دلالة، وللصيغة دلالة، وللحركة في المفرد دلالة ولتقدير الحركة في الجملة دلالة.

من خصائص هذه اللغة قدرتها التوليدية الكبيرة من جذر ثلاثي في الغالب، فناسبت بنية اللغة عالمية الرسالة، وإمكان يسر التلاوة لغير العرب. وناسبت بنية اللغة طبيعة الاعتقاد الذي يربط المعاني المولدة من الكلمات بعضها ببعض ليتسق ذلك مع معنى التوحيد، ولينسجم ذلك مع منهج التفكير في إصلاح الحياة إصلاحا ترابطيا تكامليا .

والعلم باللغة العربية يحتاج إلى جهد كبير وذوق مرهف، ولا يغني الذوق عن الجهد، ولا يغني الجهد عن الذوق، هي لغة كما يقول علماؤنا لا يحيط بها إلا نبي، ولهذا نزل بها القرآن الكريم ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء:١٩٥] .

واللغة ليست كماً محدداً من مفردات أزلية المولد، أبدية البناء،

دائمة الثبات، بل هي كائنٌ حيٌّ متطور يضعف ويقوى، وينقص ويزيد، بضعف الفكر والوعي الحضاري وقوتهما، والفكر والوعي الحضاري ذاتهما ينقصان ويزيدان بنقصان حجم المعرفة وزيادته وحركة العلوم، وليس أدلّ على ذلك من أن عدد المصطلحات والمفردات اللغوية، التي تضاف إلى اللغات الأوروبية سنويا، يقع ما بين ثمانية إلى تسعة آلاف مصطلح حديث، ومفردة جديدة، على أقل تقدير، لتواكب التقدم المطرد الذي يعيشه الغرب. د. محمود محمد سفر.

إن كاتب النص الفكري المتمكن من مادته، حسب تعبير الدكتور وليد سيف، هو كاتب يسيل قلمه بأفكاره التي تتقدم وعيه في تلك اللحظة، وتتشكل وتتمثل بالوسيط اللغوي الذي يبقى في خلفية الوعي، فلا يتوزع نشاطه الذهني بين الفكرة التي يعبر عنها والشكل اللغوي الذي يعبر به. وإنما ينصب على الأفكار، والأفكار على كل حال لا تتخلق خارج اللغة ولكن بها.

اللغة مرآة دقيقة لواقع الأمة وحالتها الحضارية، كما إنها مرآة للنفس البشرية والفكر الإنساني عموما، لأنها تعكس درجة النمو والتطور الذي تتعايش به ومعه الأمة- أي أمة - وتقوى وتزدهر وتزخر بالعديد من المفردات إذا قويت، وتتقوقع وتضمر وتضمحل إذا ضعفت، بل وتندثر اللغة باندثار الحضارة. واللغة التي نستخدمها

هي مؤشر حقيقي يحدد إلى أي مدى نرى أنفسنا أشخاصا مبادرين. وطريقة تفكيرنا تؤثر في طريقة كلامنا والعكس صحيح أيضا. لقد شهد العقد الماضي العديد من البراهين الخارقة ما يؤكد على أن اللغة تؤدي فعلاً دوراً سببياً في صياغة المعرفة. فقد أشارت الدراسات إلى أن تغيير الطريقة التي يتحدث بها الناس تغير أيضاً أسلوب تفكيرهم. فتعليم الأفراد كلمات جديدة تتعلق بالألوان، على سبيل المثال، يغير من قدرتهم على التمييز بينها. وكذلك تعليم الأشخاص طريقة جديدة للتحدث عن الوقت يزودهم بطريقة جديدة للتفكير فيه.

واللغة الإنسانية أفضل مرآة تعكس العقل وتعبر عنه، فثمة تماثل بين بُنيتَي العقل واللغة، أي أن اللغة هي بمنزلة البناء السطحي لبنية أكثر عمقا هي العقل. وفق تعبير الدكتور عبد الوهاب المسيري.

قيل: «إذا شرحت فكرتك للناس عشرين مرة، ثم فهموها كما تريد، فأنت محظوظ». وما ذلك إلا لأن اللغة أثبتت عدم قدرتها على أن تكون مرايا صافية لأفكارنا، فهي لا تخلو من شيء من العتمة والتقعير والتحديب. يقول أحد الباحثين: إن اللغة ذات طبيعة (مراوغة)، وقال أحدهم: لا تسأل عن معنى الكلمة، ولكن سل عن استعمالها. وهذا يؤكد مدى تأثير اللغة في الإدراك، وأن الإنسان لا

يدرك الأشياء كما هي بطريقة فوتوغرافية، وإنما يلونها بمقولاته الإدراكية.

وكما إن اللغة وسيلة للفهم والإفهام، فإنها يمكن أن تكون وسيلة لحجب المعنى وتضليل السامع، وكثيرا ما كانت اللغة (الضبابية والزئبقية) حاجبة للحق بدل أن تكون موضِّحة له، ومزيِّنة للباطل بدل أن تكون مقبِّحة له، وكم من كلمة قالت لصاحبها دعني. يقول «جورج أورويل»: لا شيء أفسد اللغة قدر ما أفسدتها السياسة، فالساسة كثيرا ما يقولون ولا يفعلون، ويعدون ولا يوفون، ويختارون في كلامهم الكلمات التي تحتمل أكثر من معنى (حمّالة أوجه)، وربما تحتمل المعنى ونقيضه، ولهذا كان القرآن واضحا في تحديد مسؤولية الإنسان عن الكلمة التي يقولها أو يكتبها، ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٨].

وهناك علاقة طردية بين الأفكار واللغة، فكلما وضحت الأفكار، تشققت فنون البيان، واتسعت اللغة، وتمكنت من الأداء، وجعلت للكلمات رشاقة ورصانة كأنها البنيان يشد بعضه بعضاً، وهذا ما عناه الناقد الكلاسيكي «بوالو» عندما قال: (إن ما نجيد فهمه، نجيد التعبير عنه)، وقد جعلنا كلمته هذه جزءا من عنوان هذه المرايا (المرايا اللغويّة).

إن اللغة ذات بنية مزدوجة: سطحية ظاهرة: تمثلها الألفاظ

والتراكيب والفِقرات، سواء أكانت منطوقة (مسموعة أم مرئية) أو مكتوبة، وبنية باطنة عميقة؛ تمثلها الأفكار والخواطر والأحاسيس التي تعتمل في نفس منشئ اللغة، وتختلج في وجدانه؛ فإن هو أراد أن يحررها من حيازته الباطنة وأن يشرك فيها الآخرين، جسّمها في ألفاظ وتراكيب ونسجها في نمط لغوي؛ يتخذه وسيلة لخطاب الآخرين المنتمين إلى اللغة، الذين تتباين استجاباتهم لنصوص ما يوجه إليهم من خطاب لغوي ثقافي.

وأعتقد (والكلام للدكتور عبد الوهاب المسيري) أنه مع الترشيد الكامل للغة الإنجليزية، أصبح التواصل الإنساني من خلالها صعبا إن لم يكن مستحيلا. فالتواصل بين البشر يتطلب لغة مركبّة تحوي الكثير من الظِلال وتسمح بقدر من الإبهام، فليس كل ما يشعر الإنسان به يمكنه البوح به، وحتى إن أمكنه البوح، فالصمت أحيانا أكثر بلاغة من الكلمات. أما اللغة الرشيدة (المُرشّدة) فتتطلب أن تعبر عن كل شيء، وما لا يتم الإفصاح عنه لا وجود له. وهي لغة ممتازة، ولكنها لا تصلح إلا للمعمل أو المحكمة.

والهُوية تقوم على أساس العناية باللغة: فالعروبة ليست جنسا أو لونا أو دما وإنما هي اللسان، فمن تكلم بالعربية فهو عربي. وليست العربية بأبٍ لأحدكم ولا بأم، ولكن العربية هي اللسان، فمن تكلم بها فهو عربي. واللغة تحيا بأهلها قبل أن تحيا بتركيبها، وتحظى

بالصدارة عندما يكون أهلها قد سبقوا العالم في التطور الحضاري. ودعوني أختم المرايا اللغويّة بهذه الأبيات الثلاثة المنسوبة إلى الشّاعر قيس بن الملوح (مجنون ليلى)، التي تبيّن الثراء والأناقة والإبداع الذي تحمله لغة الضاد، فيقول:

أقول لظبي مرّ بي وهو سائر

أأنت أخو ليلى؟ فقال: (يُقال)

فقلت: أفي وادي الأراكة والحمى

يُقالُ بظِل فيه؟ قال: (يُقال)

فقلت: يقال المستجير بعفوكم

إذا ما جنى ذنبا! فقال: (يُقال)

وتأمل معي كلمة (يُقال) في الأبيات الثلاثة، حيث تساوت في المبنى، واختلفت في المعنى، ففي البيت الأول معناها مأخوذ (من القول)، وفي البيت الثاني (من القيلولة)، وفي البيت الثالث (من إقالة العثرة).

المرايا الحضارية... شهود يرفض الجمود والذوبان

متى تكون الحضارة ممكنة؟ عندما سئل فيلسوف ألمانيا الشهير (كانط)، المولود سنة ١٧٢٤م هذا السؤال:

أجاب: إذا كان الفكر ممكنا.

فسُئل: ومتى يكون الفكر ممكنا؟

أجاب: إذا كان العقل ممكنا.

فسُئل: ومتى يكون العقل ممكنا؟

أجاب: إذا كانت الحرية ممكنة.

هذه الممكنات الثلاث (الفكر والعقل والحرية)، والتي ترتكز بعضها على بعض، وتؤثر بعضها في بعض، فالحرية تطلق للعقل إمكاناته، وهو بدوره ينتج الفكر النيِّر، الذي يجعل الحضارة ممكنة، فما بالك إذا استضاءت هذه الممكنات الثلاث بنور الوحي، واستقت من ينبوع النبوة، ألا تكون حضارة إنسانية رشيدة وراشدة، تفوق ما كان يأمله (كانط)، عندما جعل هذه الممكنات سببا لانبثاق حضارة.

لقد أصبح الحديث عن الحضارة، يستبطن دائما الحديث عن العالمية، التي تعني النموذج الحضاري السائد في عصرنا، وتحول مفهوم الحضارة بمعناه هذا إلى غطاء يبرر نسخ جميع الخصوصيات، والذوبان في الحضارة العالمية، وهذا ما تسعى إليه دول الاستكبار والهيمنة العالمية، من خلال عولمة (أمركة أو أوربة) العالم على

نمط واحد هو نمطها، واعتبار نفسها الأصل وما عداها فروع، وصيّرت نفسها مرجعية في كل المجالات، فكل ما تقوم به يسمى (تقدما وتحضرا)، وما يقوم به غيرها تسميه (تخلفا وبداوة).

ومن المهم أن نميز بين الانبهار الحضاري والفكري، وما يحمله من سمات التسيب والخمول والتقليد الأعمى، وبين الانتقاء والاقتباس الفكري والحضاري الواعي النافع. ففي حالة الانتقاء الواعي فإن المسألة العقيدية وقضية الهوية والمنطلقات والغايات والكليات ليست موضع مساومة ولا تهاون ولا تجاوز، وإنما هي قضية اختيار وانتقاء من المكونات والوسائل الحضارية والعلمية المتوافرة، بما هو مفيد، لكي يوضع في موضعه الصحيح من مقتضيات حاجات الأمة الحضارية. فهو بذلك يمثل انفتاحا مدروسا منضبطا، حسب تعبير الدكتور عبد الحميد أبو سليمان، وهذا هو حال كل تلاقح واتصال حضاري ناجح بين الأمم على مر التاريخ. هذا هو المنهج الذي نلمسه في أسلوب النبي ﷺ في توجيه أصحابه ومجتمعه في لقائهم الفكري والحضاري مع أهل الكتاب.

وعلى العكس من ذلك ساد نموذج الهزيمة وتغلغل في الذات العربية، في عصرنا الحاضر، وأصبحت الهزيمة مترادفة مع الموضوعية المتلقية، وفق تعبير الدكتور عبد الوهاب المسيري، (التي تعني التجرد من الذات والذاكرة التاريخية والقيم الأخلاقية

الخاصة والمثاليات والبطولة). وأصبح من البديهيات الموضوعية والمسلمات تَقَبُّل أطروحة أن العدو «متقدم» وأن قوته لا تُقهَر وأننا متخلفون وضعفنا واضح ونهائي. وفي هذا الإطار، أصبح من دلائل الموضوعية التنقيب بكل نشاط وشراهة عن القرائن والاستشهادات التي تُثبت هذا عملياً، فيبحث الدارسون عن مواطن القوة والتفوق في المجتمع الإسرائيلي خصوصا والعالم الغربي عموما، دون أن يكلفوا خاطرهم مشقة التعمق وراء هذه الشواهد والقرائن، ودون أن يبحثوا عن قرائن أخرى، تدل على مواطن القوة في الذات، وعن لحظات الانتصار التي لازمت المسلمين أيام كان للإسلام حضارته. والعودة إلى الذات الأصلية، من منطلق الوعي بالذات، ليست مجرد الحنين إلى الماضي، وإن كان الماضي بالفعل جزءا أساسيا من تكويننا وشخصيتنا التاريخية ولا غنى لنا عنه، ولكنها عودة إلى الجذور التي انبثقت عنها فروع الحضارة الإسلامية وأغصانها وأوراقها. فالطائرة لم تصنع مادتها من خمار المرأة، والطاقة لم تنقدح شرارتها باحتكاك الرجل بالمرأة، إن بوصلة الحضارة التي يسير عليها البعض مزيفة، قلدنا الصانع وتركنا المصنوع.

وقد أشار الأستاذ الدكتور «سعيد إسماعيل علي» إلى أنه قد حدث نوع من التعديل في وعينا، فالتصنيف الذي كان قائما عندما تعلق الأمر بغازٍ ومغزو، أو بمستعمِرٍ ومستعمَر، صار يتعلق بمعاصر

ومتخلف. كان التصنيف الأول يفيد تبادلا في السببية، فكان سبب التبعية هو المتبوعية، وسبب ضعف أحد الطرفين هو غلبة الآخر له، أما في المنظور الجديد، فقد افتقد هذا التبادل السببي، وارتدّت السببية إلى الذات، وقامت العلاقة بين النامي والمتخلف، لا على أساس تبادل السببية الذي يقتضي الابتعاد عن الطرف الآخر، وفك الاشتباك، ولكن على أساس تقويض ما في الذات من عناصر تعوق سعينا في التشبه بالدول، ولذلك تحولنا من موقف فعل الضد الذي يقتضيه الصراع والتدافع، إلى موقف فعل المِثل الذي يوجبه تحقيق المثال، ومن السعي للمخالفة إلى السعي للمشابهة، ومن التبعية إلى الاتباع، وصار بأسنا بيننا بعد أن كان بأسنا على غيرنا. وقد كانت الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم، تحولا حضاريا جذريا في انطلاقة الإسلام وحياة حَمَلَته، فعلى إثر هذه الهجرة العظيمة تأسست الدولة وتمدنت يثرب، فصارت (المدينة المنورة) اسما ومعنى، وكان ذلك إيذانا ببدء التأسيس الحضاري، ونواة لحضارة ضربت بجذورها في أعماق التاريخ، وها نحن نعيش ربيعها الثاني والأربعين بعد الأربعمائة والألف يومنا هذا، وإن كان واقع الحال يخبرنا أن هذه الحضارة تعيش في أسوأ مراحلها، وما تطبيع بعض سفهاء هذه الأمة وأنذالها مع اليهود إلا إحدى المؤشرات على تراجعها، ولكن ذلك ليس نهاية المطاف، فالحضارة الإسلامية

ولّادة، وسيأتي غيثها ليسقي تربتها الخصبة، وستحمل سيولها الزبد والقش إلى مزبلة التاريخ، ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ﴾ [الرعد:١٧]

والمتأمل في حاضر الأمة يرى أنها تملك مقومات نهوضها الحضاري، ولكنه يتفلت من بين يديها، فيتلقفه الآخر، ويحوّله إلى دماء تجري في شرايين حضارته، وذلك عائد إلى تراجعها وتخلفها، والأمم توظّف ما يكون متاحاً لها من المعرفة، بمقدار ما تتصف به من تقدم أو تخلف، فالأمم في حال تخلفها لا تدرك قيمة ما تملكه من تراث حضاري، فتعجز عن توظيفه لصالحها، هكذا كانت أوروبا في قرون تخلفها بعد انهيار الدولة الرومانية الغربية والشرقية، فلم تدرك قيمة التراث اليوناني الغني في الطب والرياضيات والفلسفة والهندسة والأدب والشعر. وعندما كان المسلمون في حالة نهوض حضاري، أدركوا قيمة ما كان بأيديهم وأيدي غيرهم من الأوروبيين والهنود والفرس وغيرهم، فأسرعوا في النقل والترجمة، ونخلوا العلوم وكشفوا عنها وحققوها، فقبلوا منها ورفضوا، وطوّروا وحدّثوا، حسب وصف الدكتور فتحي ملكاوي. وقد عجز المسلمون حين تخلفوا عن توظيف ما في أيديهم من

تراثهم، ولم يقدروا قيمة الإنجازات التي حققها علماؤهم حق قدرها. فلما دالت الأيام ونهضت أوروبا وجدت أنّ المسلمين قد أهدوا إلى البشرية ما كان بأيديهم من تراث اليونان، واكتشفوا كذلك ما كان المسلمون قد طوروه وأنجزوه مِنْ سَبْق في مجالات العلوم المختلفة، في الوقت الذي عجز المسلمون عن توظيف كل ذلك نتيجة لتخلفهم.

ودعوني أوسع مجال الرؤية أكثر لتتضح الصورة بشمولها، لنتعرّف أكثر على الفرق البيِّن بين التلاقح الحضاري والتبعية، فالتبعية والتقمص والذيلية والتماهي مع الآخر غير التواصل الإنساني والتلاقح الحضاري، ففي الأولى يكون الطرف التابع (نحن أو هم)، في وضع الضعيف المقلِد للقوي وفق فلسفة ابن خلدون، وفي هذا المستوى يكون التقمُّص للآخر وتقليده والتبعية له في الغالب بارزة في (الأشكال) دون (المضامين)، وفي (المظاهر) دون (الجواهر)، سواء تمثل ذلك في المأكل أو المشروب أو الملبس، أو بعض السلوكيات والعادات، وهذا يكون على حساب ما لدى الآخر من تنظيمات ومؤسسات ومراكز أبحاث ومصانع وتقنيات، هي التي صنعت تلك القوة التي أدهشتنا في زمننا الحاضر، وجعلت من بعضنا ضحية أفترسها الغرب وجعل منها أبواقا داعية لمشاريعه الاستعمارية في المنطقة (العلمانيون نموذجا)، واكتشفنا أننا لم

نأخذ من الآخر إلا أسوأ ما لديه، فكنا زبائن مثاليين ومستهلكين رائعين (للقشور والشكليات والمظاهر)، وفاتنا أن نكون تلاميذ نجباء لحضارة الآخر، فنأخذ ما يمكن أن يكون سببا لنهضتنا كما كان سببا في نهضتهم، دون أن يعني ذلك التنازل عن هويتنا وثوابتنا.

أما التواصل الإنساني والتلاقح الحضاري فأمر آخر لا يتم إلا بين حضارتين متكافئتين، تقدم كلا منهما للأخرى إنتاجها الحضاري المادي والمعنوي في تبادلية مثمرة، وقد يحدث بينهما تدافع، وفي أحيان كثيرة نوع من الصراع المرير، ولكنه لا يعني الصراع الذي يصل إلى أن يجتث أحدهما الآخر، كما في الرؤية الإسلامية، بعكس ما يمكن توقعه من الحضارة الغربية المتوحشة.

إننا نعيش اليوم في حضارة الآخر التي لا تعبأ بالضعفاء، ولا تعطي بالا للمهازيل، ولا ترفع قبعتها إلا للقوي، نحن في حضارة شعارها (حق القوة لا قوة الحق)، وما تلاحظه من تقليدٍ وتقمصٍ وتماهٍ مع الآخر في أعياده وعاداته وأسلوب حياته، ما هو إلا مؤشر عند البعض ودلالة على هزيمة نفسية، وتضخيم للآخر، جعل منه قدوة، فكانت التبعية وكان التقليد الببغائي.

ولا أظن أن انطواءنا على ذاتنا سيجدينا نفعا أو يرفع لنا قدرا، بل هو على العكس من ذلك سيعزلنا عن محيطنا العالمي، ويحولنا إلى محميات، تشبه المحميات الطبيعية والحيوانية التي يحافظ

عليها خشية الانقراض. وهنا يبدو السؤال الكبير، الذي تاه في الإجابة عنه الكثير، وهو، ما طبيعة الانفتاح على الآخر، وما هي أسس التواصل الإنساني معه، وما هي شروط التلاقح الحضاري مع الآخر، دون الدخول في جُحْره والتماهي معه والتبعية له؟

هنا يكمن التحدي، في الإجابة الحضارية الواعية الراشدة على الأسئلة آنفة الذكر، وعندها سيصبح الآخر بالنسبة لنا مصدر ثراء، ورصيد تجربة، وعامل إلهام، وشرارة تحد ومنافسة حضارية، والتي سيكون لها ثمارها على البشرية جمعاء. وهذا لن يتأتى إلا عندما ندرك من نحن على وجه اليقين، وماذا لدينا على سبيل القطع، وماذا نريد من الآخر على وجه الدقة.

إن المقصود بالتلاقح الحضاري الصحيح، والاستفادة الحضارية القويمة مما حققته الأمم من إنجازات، هو انفتاح وتعامل واع خبير مستقل، يمثل تعامل الأنداد والأسياد لا تعامل التابعين والعالة والقاصرين. وفق تعبير الدكتور عبد الحميد أبو سليمان.

وقد لاحظ الدكتور أبو يعرب المرزوقي مؤخرا أنه: «ليس للعرب، ولا للأتراك، ولا للأكراد، ولا للأمازيغ، ولا للأفارقة، تاريخ حضاري كوني يُعتدُّ به إلا بفضل دورهم في تاريخ الإسلام. وأكبر الأدلة هو ما اقتنع به الأتراك بعد ما يقرُب من قرن لمحاولة التنكُّر لتاريخهم العظيم، من أجل وهمٍ من جنس أحلام طه حسين

لمصـــر...».

لقـد أعطتنـا اليابـان دروسًـا فـي بنـاء الحضـارة مـن خـلال بنـاء الانسـان، وقـد أكـدت هـذه الـدروس علـى أن الانسـان عندمـا يفشـل فـي أمـرٍ مـا فيخاطـبُ نفسـه قائـلاً: لقـد فشـلتُ هـذه المـرة، وأسـبابُ فشـلي كـذا وكـذا، وسـأعمل علـى تجـاوز هـذا الفشـل. عندمـا يخاطبُ الإنسـان نفسـه بهـذه الطريقـة، فـإن ذلـك سـيدفعه بشـكلٍ لا شـعوري إلـى تلمُّـس طـرق النجـاح، والتغلـب علـى فشـله، بعكـس اليائـس الـذي يـرى أن الحيـاة قـد توقفـت، ولا يصـل إلـى هـذه الحالـة مـن اليـأس إلا مـن انسـدت لديـه طـرق ومسـارات المعرفـة الإسـلامية الصحيحـة.

ومولـد الحضـارة فـي أي مجتمـع يبـدأ بمولـد الإنسـان في ذلـك المجتمع الـذي تُخْلَـق فـي أعماقـه تلـك الإيجابيـة التـي تدفعـه للبنـاء فتكـون عندئـذٍ الحضـارة (عبـد الغنـي عبـود، الحضـارة الإسـلامية والحضـارة المعاصـرة)، وهـذا لا يعنـي نوعًـا مـن التنميـط للبشـر، أو إيجـاد مجتمـع مـن النمـاذج الواحـدة المتكـررة، وإنمـا -كمـا فعـل النبـيُّ ﷺ -يُولَـدُ مجتمـعٌ كلُّ فـردٍ فيـه نسـيجُ وحـدِه، تنـوعٌ فـي إطـار منظومـة واحـدة، متناغمـة متناسـقة، رغـم اختـلاف أفرادهـا فـي القـدرات والتوجهـات والفعاليـات.

والرؤيـة القرآنيـة الكونيـة الحضاريـة إنمـا هـي وصـف وتجسـيم لمعنـى الإنسـان وإدراكـه لحقيقـة فطرتـه، ومعنـى طاقاتـه وقدراتـه، والغايـة

من وجوده، وطبيعة دوره الذي على ضوئه وهبه الله هذه الحياة. وكرامة الإنسان جزء لا يتجزأ من مفهوم الحضارة والرؤية إلى الكون والحياة والرابطة بين هذه العناصر جميعا تمثل تأسيسا عقديا لمعنى الحضارة، فتجعلها استخلافا لا استئثارا، وهي في سعيها لهذا التصور تؤكد العالمية، وتمكِّن للحضارة، وتمكِّن للعقيدة معا، وفق تعبير د. سيف الدين إسماعيل.

وحين نحلل الحضارة الإسلامية فإنه يدخل في اطرادها عاملان: الفكرة الإسلامية، التي هي أصل الاطراد، والمسلم الذي هو السند المحسوس لهذه الفكرة، فتطور الحضارة صعودا وهبوطا مرتبط من حيث الأساس بفكرة الإسلام والفرد الذي يمثل سندها المحسوس.

إن عملية البناء الإنساني المنشود هي التحدي الحضاري الذي له ما بعده، ولهذا كانت عملية بناء الإنسان من الصعوبة بمكان، وكان إنجازها في ظل عوامل الهدم الكثيرة تشبه العمل الخارق، فعوامل الهدم المتعددة في عالم اليوم لم تدع للبُناة أن يلتقطوا أنفاسهم، فهي تقوِّض كلّ أبنيتهم، وتنقُضُ كلّ بنيانهم، وإذا أدركنا أن البُناةَ في المجتمعات قليلون مقارنةً بمن يحملون معاول الهدم أدركنا من خلال ذلك المهمة الصعبة التي تواجه مَنْ يحملون لبنات البناء، وهم من عَنَاهم الشاعر بقوله، وإن كنا لا نقرُّ تشاؤمه وإحباطه، حيث يقول:

متى يبلُغُ البُنيانُ يومًا تمامَهُ إذا كنتَ تبنيهِ وغيرُكَ يَهْدِمُ

فلو ألفُ بانٍ خَلْفَهم هادمٌ كفى فكيف ببانٍ خَلْفَهُ ألفُ هادمِ

وجوهر التحديث هو تحقيق الذات بالمعنى الحضاري، والفهم السابق للتحديث يعني أن نبدأ بالإنسان، وأن نثق به، ونعتمد عليه في إحداث التحولات الاجتماعية ـ الحضارية اللازمة.

والنهضة التي تبدأ أولاً من نقد الذات، هي النهضة التي ترتجى ثمارها، ﴿إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد:١١] ، ونقد الذات يحتاج إلى تشخيص الذات، وتشخيص الذات يحتاج إلى العودة إلى الذات، لأن التغيير والنهضة يبدآن من الإنسان، وليس من الظروف، ولا من الأدوات والإمكانيات فقط. والتخلف الذي نعاني من ويلاته كامن في نفوسنا وعقولنا وإراداتنا، وليس في شيء آخر على الإطلاق. فالحضارة يصنعها إنسان الحضارة، والتقدم يصنعه إنسان التقدم، والإبداع يصنعه إنسان الإبداع، والوحدة يصنعها إنسان الوحدة.

والاعتراف الذاتي بالعيوب وصور الخلل والسلبيات هو صورة من صور الثقة بالنفس، والصدق مع الذات ومع الآخرين، وخطوة مهمة على طريق التصويب والإصلاح، وأن يأتي النقد وكشف السلبيات على أيدينا أفضل مائة مرة عن أن يأتينا على يد الأخرين.

إن العودة إلى الذات تبدأ من الرغبة والشعور المتميز، ثم تمر

بمرحلة البحث والتلمس عن معالم التراث، في شتى مجالات الفكر وميادين السلوك وآفاق الحضارة، لتنتهي بمرحلة تحقيق الذات والإسهام الإيجابي، حوارا أو صراعا على الصعيد العالمي والإنساني. والتغيير والتحويل لواقع الأمة، وفق تعبير الدكتور ماجد الكيلاني، لا يبدأ من رأس السلطة، الذي لا يعدو أن يكون ثمرة طبيعية، لبذرة الواقع وشجرته، وإنما يبدأ التحويل من العكوف على الذات، والبدء من أغوار النفس بإعادة التربية والصياغة، وتغيير البذور الفكرية، لتنتج ثمارا أخرى في رأس السلطة، فالله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

وحسم ماهية (الأنا) يساوي حسم المرجعية، حسب تأكيد الدكتور محمد البنعيادي، التي على أساسها ننظر إلى (الآخر)، لهذا فإن قاعدة فض الاشتباك أو إنهاء الإشكالية بين (الأنا) و(الآخر) هي في مصالحة (الذات الحضارية)؛ لأننا لا يمكن أن نسقط هيمنة (الآخر) المعرفية إلا بمصالحة (الذات) وترتيب علاقتنا بها (ترتيباً صحيحاً وفياً للمرجعية الأصيلة)؛ لأن الهيمنة المعرفية لـ(الآخر) تستمر باستمرار أسباب نموها وديمومتها، من مخاصمة (الذات) والجهل بإمكاناتها وقدراتها المتنوعة، وأن الفكر السجالي الذي ينظر إلى (الآخر) كشر مطلق لا يؤدي إلا إلى المزيد من هيمنة (الآخر) المعرفية والتقنية، لهذا فإن إهمال الذات وتجاوز أطرها المعرفية

لا يؤدي إلى فهم (الآخر) فهماً دقيقاً، بل يؤدي إلى الانبهار به والتلقي الأعمى لكل ما ينتجه ويصدره، وأن أصحاب هذا المنحى لا يدركون العلاقة التي تربط بين فهم (الذات) وفهم (الآخر).

والانبهار بـ(الآخر) واحد من أهم المعيقات النفسية أمام الإنسان العربي المسلم، والتي تحد من قدرته على الإبداع والعطاء، وتجعله أسير سياقه، غير قادر على الفعل والتأثير، حسير البصر، لا يملك أن يجاوز تخوم الضرورات التي فرضها منطق (تآكل الذات) و(تغول الآخر) في الواقع السياسي العالمي.

وإذا كان بعض المثقفين العرب يميلون إلى الربط بين إثبات الذات ونفْي الغير، خصوصًا في رؤيتهم للعلاقة بين العرب والغرب، حتى آمنوا بقانون التزامن بين غروب الغرب وشروق الشرق كما لاحظ جورج طرابيشي، وحاول بعضهم التغلب على مركّب النقص بحقنة اعتزاز يعلل بها النفس، كما لاحظ مالك بن نبي، فليس الجواب الحكيم على ذلك هو نفي الذات والاستسلام لسياط العولمة، وإنما الجواب الصحيح هو الجمع بين الاعتزاز بالذات واحترام الغير، إذ ليس التشبث بالهوية نقيضًا لعناق الإنسانية. وهذا هو ما جعل كثيرا من مثقفينا المحدثين، وفي استلاب واضح، يبحثون عن الذات في ذوات أخريات، دون أن يفطنوا إلى أن تكامل الذات يبدأ أول ما يبدأ بوعيها على طريق تشوّف ما تحتاجه من معطيات الذوات

الأخريات.

وليست أمة (النخلتين)، كما سماها الدكتور محمد بن المختار الشنقيطي، في حاجة اليوم إلى إثبات الذات بنفي الغير داخل حدودها، ولا بالتنكر لما نسجته القرون من أرحام دينية وثقافية وإنسانية بينها وبين الشعوب الإسلامية المحيطة بها، ولا بالإنبتات عن بقية الإنسانية، وإنما هي في حاجة إلى إنسانية أكثر، تجمع بين الاعتزاز بالذات من دون صلف، وإثرائها بما لدى الغير من دون مذلة، مع روح الإنصاف والاعتراف بحق الاختلاف، فلدى الأقوام الآخرين مثل ما لدى العرب من عزة قومية وحرص على الهُوية. والاهتمام بالموروث الحضاري على وجه العموم فريضة أساسية، وخاصة في بدايات النهوض الحضاري، حيث يتجه الجهد الفكري إلى استيعاب خبرة الماضي منطلقا بذلك إلى هدفين، ذكرهما البروفيسور سعيد إسماعيل علي، أولهما: أن يكتسب ثقة في الذات تؤهله أن ينهض ويتابع السير، والهدف الآخر: أن يكتسب خبرة من هذا الماضي يمكن أن يبني عليها في الحاضر والمستقبل. والأصالة بالضرورة تعني الانبثاق من الذات والتعامل مع الواقع بشكل إيجابي. بمعنى الانطلاق من قيم الذات ومبادئ الإسلام نحو التعامل مع قضايا العصر.

إذن نحن أمام نموذجين: الأول يتعلق بالتحيز بأوسع معانيه

ومستوياته بخريطته الكلية وتضاريسه الأساسية، ونموذج الالتزام الذي هو مواجهة حقيقية للتحيز بشقيه الأساسيين: التحيز ضد الذات والتحيز مع الذات، أما الالتزام فهو وعي بالذات وعودة إليها، والوعي بالذات مدخل للتعامل مع الآخر بكل تنوعاته، ودون اختزال لا يعي حقائق الشمول، ودون تبسيط لا يعي حقائق التفاعل والتداخل، وهذا النموذج يواجه جوهر الأسطورة المؤدي إلى التحيز ضد الذات أو معها، ودون أن يعني ذلك الحياد البارد، كما سماه الدكتور سيف الدين إسماعيل.

إنها للحظة خطرة في التاريخ تلك التي لا نعرف فيها من نحن، أو عندما لا نثق بأنفسنا، وسنبقى في حالة ضعف عندما نبقى في مربع الدفاع باستمرار، فالدفاع في أحسن حالاته يمكن أن يحافظ على الذات، ويمنع انتصار العدو، أما النصر فلا يأتي إلا من خلال الهجوم بعد الدفاع.

ومن أروع الإجابات العميقة التي ترسم دور الفرد في البناء الحضاري تلك التي أجابها المفكر السوري الشركسي جودت سعيد، حين سئل: كيف تبنى الحضارات؟ فقال: «بأداء الواجبات الصغيرة.» نعم، الواجبات الصغيرة تشكل الصورةَ النهائية، والمنتج الختامي لأي حضارة. وهذا يشبه عمل الفلاح الذي يضع البذور في التربة، ليصنع من هذه البذور الصغيرة حقلا كاملا.

أغلب أحاديثنا تتجه لرسم الصورة الكاملة والنهائية للحضارة، ولذا عجزنا عن إيجاد الرسّام الذي يحمل القلم الكبير لرسمها.

الصورة الكاملة للحضارة لا ترسمها إلا أقلام صغيرة كل واحد يرسم جزءا صغيرا. نحن نتحدث عن إنجازات الآخرين كـ (اليابان، كوريا، ألمانيا) في صورتها النهائية، لكننا لا نتحدث عن تفاصيلها اليومية.

واحدةٌ من أكبر إشكالياتنا المزمنة إشكالية «الكلام الكبير»، نتقنُ فنّ الكلام الكبير الذي يستخدم العبارات الطنّانةِ والجملِ الرنّانة، لكن الكلام العظيم لا ينجز إلا بتفتيته إلى «واجبات صغيرة» ...!

وهنا يتبدى لنا المأزق الفكري المرسوم في تصوراتنا، والذي يستحضر الصورة النهائية للحضارة ويراها مستحيلة البلوغ، في حين أنها قابعة في تفاصيل أعمالنا وإنجازاتنا اليومية المتقنة، الكامنة في الانشغال المركّز في أداء كل شخص لواجباته بمسؤولية وبرؤية واضحة.

ركِّز على العمل الذي بين يديك فقط، قم بتجويده وتحسينه وأدائه على النحو الممتاز، فحين يتقن الأستاذ أداء عمله، ويتقن النجار أداء عمله، ويتقن الحداد، ويتقن الخياط، ويتقن الموظف، ويتقن السائق، ويتقن... تكون الصورة النهائية حياةً متقنة.

ولكوننا قد تعودنا على رسم الصورة (المثالية) للحضارة في حالتها

الكاملة الناجزة، فكثيرا ما نجلس الجلسة مع بعضنا لنقدم سيلا من الشكوى المتبادلة التي ننتقد فيها صاحب هذا المستشفى، أو هذا الطبيب، أو ذاك الصيدلي، لأنهم قدموا لنا خدمة سيئة عندما لجأنا إليهم بسبب مرض ألمّ بنا، ونتوعدُهم في أنفسنا بعدم العودة إليهم ثانية، وننتقدُ الخياط الذي عبث بخياط ملابسنا، وهكذا دواليك في أغلب لقاءاتنا، في الوقت الذي ينتقد آخرون تقصيرنا في أداء واجباتنا وهكذا، مجتمع يدين بعضه بعضا ويتهم بعضه بعضا بالتقصير. كلنا نشتكي!! لكن من هو المتهم؟ من الأفضل أن ينشغل كل واحد منا بتجويد عمله، وينهمك فيه ويعتقدَ جازما أن هذا هو الموقع الذي ترفد الحضارة من خلاله.

وهذا هو ما أكّد عليه المفكر مالك بن نبي في كتابه «مشكلة الثقافة» بقوله: «الذي ينقص المسلمُ ليس منطقُ الفكرة، وإنما منطقُ العملِ والحركة». فتراكمية الواجبات الصغيرة، تصنع المنتج النهائي لصورة الحضارة الكاملة. لقد آن الأوان لنكف عن التشكّي والتلاوم ونقد بعضنا بعضا، ونركِّز فيما بين أيدينا من مهام. وهكذا تبنى الحضارات. (مأخوذ بتصرف من مقال للأستاذ الخضر بن حليس).

إن لكل من التقدم والتخلف أسبابه ومستلزماته، فكل من أخذ بأسباب التقدم يتقدم، وكل من تضربه علل التخلف يتخلف، لا فرق

في ذلك بين مؤمن وكافر، ولا بين آري وسامي، ويخدع نفسه من يتصور وجود (شعب مختار)، ولكن في الحقيقة يوجد (شعب مختال) نرجسي معجب بنفسه، كأن الله خلقه من طينة خاصة، وفضّله على سائر خلقه تفضيلا، الحقيقة أنه ليس هناك محاباة خاصة، بل سنن عامة للصعود والتقدم، وأخرى للتخلف والهبوط، وكل من أخذ بسبب، جاءت النتيجة وفق ما أخذ، ولا يظلم ربك أحدا.

ويرى الدكتور عبد الحميد أبو سليمان أنّ ثمة شروطاً ثلاثة للنهضة والإصلاح: أوّلها قوة البناء النفسي والشجاعة النفسية. وثانيها سلامة منهج التفكير وتفوّقه. وثالثها وضوح الرؤية الحضارية التي تقصد عموم الخير للخلق كافّة. وعندما ينظر أبو سليمان في أثر فقدان هذه الشروط، نجده يضع منهجية التفكير في المقدمة؛ فقد (أدى الانفصام التاريخي بين القيادة الفكرية والقيادة السياسية في كيان الأمة... إلى خلل المنهج، وأدّى خلل المنهج إلى تدمير القوة النفسية وإلى فقدان الرؤية الحضارية).

إن الحضارة ليست أشياء تُشترَى وتُقتنَى، بل هي أفكار وعقلية تُبنَى وتمتلك سر التطوير، وإذا أردنا اختصار تعريف الحضارة وَفْقَ رؤية د. خالص جلبي، فيمكن ترميزها بثلاث كلمات: إيجاد (الأفكار والأنظمة)، وصيانتها، وتطويرها، في علاقةٍ جدليةٍ نامية.

ومما يؤسف له أن عقلية استيراد المناهج والسياسات الجاهزة من الآخر ساهمت بتكريس العجز والتخلف، وقضت على عقلية الإبداع والمبادرة، وتحوّل الأمر إلى نوعٍ من الاستسلام والتبعية وتكديس الأشياء وعطالة الأفكار، وهذا ما نعاني منه بالفعل، وهو أننا نتعامل مع منتجات الحضارة بنفسية وعقلية إنسان يعيش في زمنٍ تسيطر فيه قيم التخلف.

وكثير من الكتاب والمفكرين والدعاة المسلمين إذا تحدثوا عن مستقبل الإسلام، دخلوا مباشرة في الحديث عن مواجهة المخططات والتحديات الخارجية والمؤامرات المعادية. وإذا تحدثوا عن رسالة الإسلام وحضارة الإسلام وحاجة البشرية إلى الإسلام، فإنهم سرعان ما يربطون ذلك بأزمة الحضارة الغربية وعيوبها، ويتحدثون عن فشلها وبوادر تفككها وحتمية انهيارها، وكأنه لا مستقبل للإسلام ولا مكان لرسالته وحضارته إلا على أنقاض الحضارة الغربية، حسب وصف الدكتور أحمد الريسوني، ولا مكانة للمسلمين إلا بفشل الغرب وتلاشي قوته. وكأنه علينا أن ننتظر ذلك أو أن نعمل لأجله، لكي نأخذ بعد ذلك دورنا ونؤدي رسالتنا ونصنع مستقبلنا. وهذا ليس لازما، كما إنه ـ في جزء منه- ليس صوابا، فمصلحة البشرية ـ ومنها المسلمون- تكمن في إنقاذ الحضارة الغربية وتحسينها وترقيتها ما أمكن. وهذا لن يتأتى ـ من جهة- إلا بمحاورتها

واختراقها واستيعاب إيجابياتها وتبنيها. ومن جهة أخرى بمزيد من النجاح والتقدم للإسلام، بعقيدته وأخلاقه وقيمه وشريعته، وبالنماذج والإنجازات المشرفة لأهله، والمشوقة لغير أهله.

واستشراف المستقبل ليس رجما بالغيب يقوم ويتأسس على عناصر مصادفة، كما إنه ـ أي الاستشراف ـ ليس فعل الأماني الهائم في خيالات وتهويمات من غير فعل التمكين الحضاري، كما إنه ليس فعل التقليد للآخر أيا كانت قاعدته أو رؤيته أو وجهته، فعل (جُحر الضب) الذي يقوم على تقليد أمم وصفت بالتقدم، حتى لو دخلوه لدخل هؤلاء المقلدون وراءهم.

إن فعل الحضارة في إطار فهم خاطئ للحاق بالركب الحضاري إنما يعبّر عن جوهر التقليد المذموم الذي يصل بالكيان الحضاري إلى حال من استهلاك الحضارة لا إنتاجها، واللهاث وراء منتوجاتها، زاعما أن امتلاك أشياء الحضارة، يعني امتلاك أصول الحضارة وأسبابها، وهذا في النهاية لا يفرز إلا مسوخا حضارية مشوهة، هي على النقيض من عناصر استشراف حضاري، وتأسيس قواعد علاقات معه تتسم بالمساواة والندية والقدرة عليها، هذا وذاك يؤسس بدوره وعيا بالموقف بكل أصوله وتكويناته وامتداداته الحضارية.

إنه لأمر جد عجيب أن يعجز البشر في ظل الحضارة الغربية المعاصرة إلا في سباق للتسلح، وعن التباري إلا في إنتاج أسلحة

الهلاك والدمار، وعن أن يفقدوا الإحساس بالأمن إلا في ظل توازنات الخوف والرعب، وأن يصبح الحق لمن يملك السلاح والقوة، والغنى والرفاه للصفوة والقلة من الأمم. وقد حذّر المهاتما غاندي من حضارة العصر التي ارتكبت خطايا جعلت: السياسة بلا مبادئ، والتجارة بلا أخلاق، والثروة بلا عمل، والتعليم بلا تربية، والعلم بلا ضمير، والعبادة بلا تضحية.

إننا لا نستطيع أن نمنع الآخرين من التفكير بمصالحهم والاستجابة لنزواتهم، لكن بإمكاننا أن نسلّح أنفسنا بما يجعل كيدهم باطلا، أو مؤقت التأثير، كما يوجهنا إلى ذلك الدكتور عبد الكريم بكار. وإذا كنا قد تحدثنا حتى الآن عن الخسائر والهزائم التي ألحقها بنا الآخرون، فإن الوقت قد حان لكي نبدأ الحديث عن الهزائم والخسائر التي ألحقناها بأنفسنا وبهذا ستكون بداية نضجنا. حسب تعبير المفكر علي عزت بيجوفيتش.

ومما ينبغي لنا عمله على وجه السرعة، هو أن نعيد النظر في النظرة التي بدأنا ننظر بها إلى أنفسنا من خلال عيون غربية، ونحكم على أنفسنا بمعايير مستقاة من (بلاد بره)، كما يقول إخواننا المصريون، هذه التي ملكت علينا شغاف قلوبنا. وألا يبقى حالنا مع ثمرات الحضارة كحالة الوردة، عندما يأتي شخص ما فيقطعها ويتمتع بها، دون أن يعرف معاناتها.

إن عناصر الربط بين (العلم النافع) و(العمل الصالح)، ليعبر عن حركة حياتية مستمرة قائمة على التواؤم والتفاعل، «وإن العلم بلا عمل ليس إلا عطالة حضارية»، كما يقول الدكتور سيف الدين عبد الفتاح، تكتفي بشقشقة الكلام لا بعمق الأفعال الحضارية، وإن العمل بلا علم يسبقه، هو حركة محفوفة بالمخاطر، وغالبا بكل عناصر الضرر الحضاري، لأن العمل وفق هذه القواعد غير مأمون، يقوم على عناصر التقليد القاتل، أو العمل الأجوف، أو من يحسبون أنهم يحسنون صنعا، أو هؤلاء الذين غرتهم الأماني.

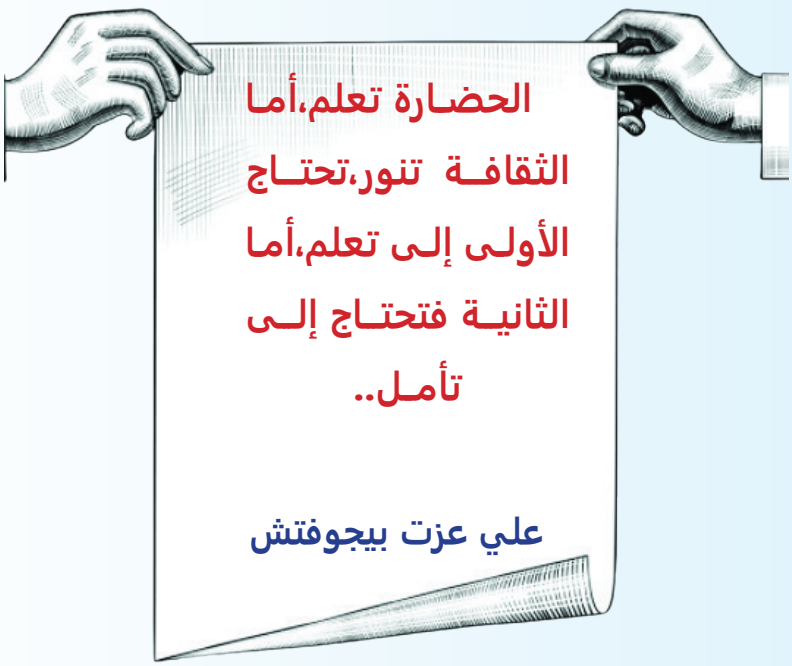

المرايا الإنسانية... كلكم لآدم

مهما اختلفت آراؤنا وتنوعت عقائدنا فإن الحس الإنساني العميق ينبغي أن يظل هو الغمامة التي تظللنا جميعا. والإنسانية - مع هذا- ليست ديناً، كما قال أحدهم، إنما هي رتبة يصل إليها بعض البشر، فهي نهر من النور يسير في أودية الأزل، إلى بحر الأبد. والإنسان عندما ينظر إلى الكائنات يجد أن لكل منها صفة لا تنفصل عنها، فنحن عند الوصف نقول: النمرية للنمر، والكلبية للكلب، والحصانية للحصان، إذ ليس بالإمكان العثور على حصان لا حصانية فيه، أو كلب لا كلبية فيه، أو نمر لا نمرية فيه، وفق تشبيه الشيخ مرتضى المطهري، ولكن الإنسان، هو وحده الذي يمكن أن يكون إنسانا (لا إنسانية فيه)، وذلك لأن الأمور التي نعدها هي إنسانية الإنسان، هي تلك التي تمنح الإنسان خصوصياته الإنسانية، والتي تعد المقياس الذي يقاس به، وليست الأشياء التي تدل على شخص الإنسان، وبمعنى آخر، هي ليست مجموعة الأمور التي تصنع بنية الإنسان المادية، فإنسانية الإنسان ليست مادية ولا مُحسّة، على الرغم من أنها تخص الإنسان، وترتبط بهذه الدنيا، فهي بعبارة أخرى، من المعنويات لا من الماديات.

وما نحتاج إليه الآن، ليس التباكي على إنسانيتنا المنتهكة، لأن ما نحصده من الهمجية، هو ثمرة داء مركب، بآفاته الثلاث، المتمثلة

فـي:

١-(المركزية) البشرية التي تدمر علاقة الإنسان بالطبيعة.

٢-(النرجسية) العقائدية (التعصبية) التي تسمم العلاقات بين الناس.

٣-(الأحادية) الوجودية، التي تختزل الإنسان في بعد واحد.

وهـذه الآفـات الثـلاث تولّـد الجهـل والعجـز ومـا يتبـع ذاك مـن المسـاوئ والمخاطـر والكوارث.

والأصـل فـي الإنسـان أنـه قائـد لا مقـود، وسـيدٌ لا مسـود، ممـا يعنـي أن إنسـانية الإنسـان تتنافـى مـع أي قهـر دينـي أو سياسـي. وفـي هـذا السـياق يقـول جوتـه: «عامـل الإنسـان (كمـا هـو) وسـيظل كمـا هـو، عاملـه (كمـا يسـتطيع أو يجـب أن يكـون) وسـيصبح مـا يسـتطيع أو يجـب أن يكـون».

والواقـع أن جمـاع مصطلـح الإنسـان، وفـق رؤيـة الأسـتاذ الدكتـور/ أحمد محمـد الدغشـي، فـي كتابـه (الأسـاس الفطـري للتربيـة الإسـلامية)، يسـتغرق جميـع خصائصـه، والتـي مـن أهمهـا التكليـف والمسـؤولية، وحريـة الإرادة. وكل ذلـك يعنـي المقدرة المتسـمة بالنـزوع الإرادي نحو تحقيـق الفعـل الإنسـاني، أيـا كانـت سـماته، ومـن ثـم عواقبـه، تواصـلا مـع نزعـة الخيـر المتأصلـة فـي داخليتـه تنميـة ورعايـة وصيانـة، أو الشـر الـذي قـد يغلـب الخيـر سـاعة الضعـف الـذي يعتـري الإنسـان بفعل عوامـل خارجيـة مـن بيئتـه، قبـل أي تأثيـرات جانبيـة أخـرى.

وحينئذ تتحول الفطرة الخيِّرة من حالة الخير والصلاح التي ولدت عليها، إلى حالة الشر والعدوان، التي انقلبت نحوها ولكنها لم تفقد بعد الميزة الإنسانية، التي هي الرفد والدفع القويين باتجاه تغليب (الخير الأصيل) على (الشر الدخيل)، عن طريق حرية الإرادة، التي تستكمل عملية موازية للأساس الفطري، الذي يمثل إلى جانب الوحي أساسين، لا ينفصل أحدهما عن الآخر في بلورة السلوك الإنساني.

إن أزمة الإنسانية اليوم، وفي كل زمان، هي أنها تتقدم في (وسائل قدرتها)، أسرع مما تتقدم في (وسائل حكمتها)، وفق تعبير الأديب المصري توفيق الحكيم. لقد طوّر الإنسان المؤسسات، ولكنه يعيش على فردية قاتلة، ووسّع شبكة علاقاته، ولكنه بذلك حدّ من دوره كإنسان، وبرمَج سلوكه، ولكنه يكاد يفقد إنسانيته، وسيطر على الأشياء، ولكنه يكاد يفقد السيادة على نفسه، ومجمل القول إن الإنسان حقق تقدما هائلا في أنساقه العلمية، وفي قدراته التقنية والمادية، ولكنه تراجع على صعيد الخُلق والإنسانية، ومن حيث عالم المعنى.

وشخصية الإنسان (كإنسان) تتجلى في خصائصه الأخلاقية والنفسية، وبها ومن خلالها يحدد وجهته كإنسان، فإذا لم تكن خصائص الإنسان الأخلاقية والنفسية متّسمة بالخصائص الإنسانية في الخُلق والنفسية، بل اتسمت بخصائص الحيوان المفترس، فهو بهذا قد تحّول

إلى (مسخ)، فهو لم يعد إنسانا لانتفاء نفسية الإنسان وأخلاقه لديه، وهو كذلك قد تجاوز الحيوان في الدونية، كون صفات الحيوان الموجودة فيه غريزية، في حين هي في الإنسان مكتسبة. وعندما نقول إن هذا إنسان فباعتبار كمالاته وقيمته الإنسانية، فلو كان ضد الإنسان، أي إنسانا (بالقوة) في الواقع، وضد الإنسان (بالفعل)، فلا يمكن اعتباره من بني الإنسان، وهو لا يمتّ إلى الإنسانية بصِلة، وإن تغنى بها ليلا ونهارا.

إن تهذيب النفس وتزيينها بالأخلاق الإنسانية من أصعب الأمور وأشقها، وذلك لأن العقل والقلب في كثير من الأحيان يقفان في هذه الحالة على طرفي نقيض، والصراع مع النفس (الأمارة بالسوء) يتطلب قبضة قوية من العقل والإيمان.

وقد نشاهد أشخاصا يتمسكون حقا بالقيم الإنسانية، إلا أن إحدى هذه القيم تتمدد فيهم ويكبر حجمها، حتى تطغى على جميع القيم الأخرى. فهؤلاء أشبه ما يكونون بذلك الذي تنمو فيه أذنه، أو أنفه فقط. إن أغلب الانحرافات في المجتمع ناشئ من عدم الانسجام والتناسب بين الحقوق والقيم، والمجتمع لن ينحرف مائة بالمائة عن طريق الباطل، بل أحيانا قد ينحرف المجتمع بسبب الإفراط في حق من الحقوق، أو قيمة من القيم على حساب الحقوق والقيم الأخرى، حسب تعبير الشيخ مرتضى مطهري.

إن تقدير الإسلام للإنسان وللكرامة الإنسانية لا يعبر عنه من خلال الحب والتسامح بالدرجة الأولى، وإنما من خلال مبدأ المسؤولية، فالإنسان مسؤول عن أفعاله، والعقاب على الجريمة يجمع بين كل من حقوق الإنسان والكرامة الإنسانية لكل إنسان، بما في ذلك المجرم ذاته، كما عبّر عن ذلك المفكر علي عزت بيجوفيتش. والإسلام هو نظرية انتصار الإنسانية على الحيوانية، والعلم على الجهل، والعدالة على الظلم، والمساواة على التمييز، والفضيلة على الرذيلة، والتوحيد على الشرك. والإسلام حين يقرر ثوابت الشريعة وحدودها، فإنه أيضا يقرر ثوابت الإنسانية وحدودها؛ إذ هو رسالة الله للإنسان الذي خلقه الله وفضّله وكرّمه، ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آَدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء:٧٠] .

وهناك عبارتان جيدتان لابن سينا ذكرهما في كتابه (الإشارات)، وتستحقان التأمل، الأولى هي قوله: «من تعود أن (يصدِّق) بغير دليل فقد انخلع من كسوة الإنسانية». وفي كلامه إشارة واضحة إلى كون إنسانية الإنسان لها بعدها المستقل، فهي ليست ذاتا قابلة لكل ما يقال لها، أو يلقى عليها، بل هي ذات تقبل من الكلام ما كانت كسوة دليله معه، وهذا يعني أن الإنسان لا ينبغي له أن يقبل الكلام بدون دليل، مصداقا لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ

أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الأَلْبَابِ﴾ [الزُّمر:١٨]، والاتباع للأحسن قائم على دليل وبرهان، وفي المقابل، فالأشخاص الذين اعتادوا على (إنكار) كل شيء بدون دليل، فهؤلاء ينطبق عليهم ما انطبق على من سبقهم، وهذا أيضا مرفوض، يقول ابن سينا : «كل ما قرع سمعك من العجائب فذره في بقعة الإمكان، مالم يردّك عنه قائم البرهان».

وهذا يؤكد لنا أن الإنسان عندما يتنازل عن هذه الميزة الإنسانية الفريدة (التصديق والإنكار بناء على الدليل والبرهان)، يفقد الكثير من سمات الإنسانية، وعلى ضوء ذلك يتم صناعة الاتباع الخانعين، الذين يصنعون الفراعنة والمستبدين، وهذا ما نلاحظه في التاريخ الإنساني عامة، فكثير من المجتمعات هي التي تصنع المستبدين وتمكن لهم، وتدفع بهم إلى مقام الفراعنة، من خلال العنف الأسري، والعنف المدرسي، والعنف الاجتماعي، والعنف والتزلف السياسي، والعنف والتزلف الفكري والإعلامي، والعنف هنا لا يتوقف على الأذى الجسدي، بل يتعداه إلى العنف النفسي والفكري، الذي يكره الناس على التصديق بدون دليل أو الإنكار بدون دليل أيضا. وغفلة جماهير المجتمع عامة، والقوى الحيوية فيه، عن دورها ومسؤولياتها تجاه الشأن العام، بل وانسحابها من ذلك، وانطوائها على نفسها ومصالحها الخاصة، وترك المجال فسيحا للقوى

الانتهازية، يجعلها تفسح المجال لصناعة المستبدين وتسلطهم على المجتمع ومقدراته، وهذا بدوره يفقد هذه الجماهير إنسانيتها، ولو أن هذه القوى الاجتماعية الخيِّرة قامت بدورها ومسؤولياتها تجاه الشأن العام، ونافست على ذلك وصبرت واحتسبت، لما تسلّق سلمَ المسؤوليات الفكرية والاجتماعية والسياسية الخطيرة في المجتمع، ضعيف أو مريض أو انتهازي أو مفسد، ولما عانى العباد الأمرّين من ذلك، ولما تعرّضت هذه المجتمعات إلى كل هذه الأخطار المهلكة.

ومع هذا يجب علينا ألا نفقد الأمل في الإنسانية، كما يقول غاندي، فالإنسانية تشبه المحيط، وإذا ما كانت بضع قطرات من المحيط قذرة، فإن هذا لا يعني أن المحيط قد أصبح قذرا. وأن على الناس ألا يسكتوا عندما يتعرض أحد للظلم لأنهم إن سكتوا ولم يدافعوا عن الحق بقدر استطاعتهم، فإنهم سيفقدون إنسانيتهم، والإنسانية غير قابلة للتفاوض.

والحس الإنساني ينبغي أن يكون حاضرا في كل تعاملات الإنسان مع أخيه الإنسان، وأن لا يتخلى عن هذا الحس الإنساني في أي طور من الأطوار التي يتعامل فيها معه، فإذا استطاع الإنسان الوصول إلى حقه دون أن يؤذي أحدا فليفعل، وإذا كان من حقه أن يقتل عدوه فلا يمثّل به، وهذا مؤشر على وجود صفة الإنسانية المتحلية بالحس الإنساني، حتى فيما يُرى فيه الشدة والقسوة مع

الكائنات الحية فما بالك مع الإنسان، (إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة وإذا قتلتم فأحسنوا القتلة)، وفقا لحديث المصطفى ﷺ.

وهذا يدعو بني الإنسان إلى الاهتمام بالإطار الإنساني وعدم تحطيمه، لأن في تحطيمه دمار للبشرية وفناء لها، وهي نصيحة يقدمها لنا الدكتور عبد الكريم بكار، يقول فيها: «لا تحطم الإطار الإنساني واترك موضعا للصلح والاعتذار والمسامحة. كن دائما الأرقى والأكرم ودع الأحقاد للصغار.».

والإسلام ينظر إلى الحرية على أنها حق إنساني فطري، وأنها عطية إلهية للإنسان لا يجوز العدوان عليها. والحرية في الإسلام هي جوهر إنسانية الإنسان، والإنسان يولد حرا من حيث المبدأ، بل أزيدكم توضيحا، أنه لو أدّعى رجلان طفلا، أحدهما مسلم، والآخر غير مسلم، فقال غير المسلم: هذا ابني. وقال المسلم: هذا خادمي (بمعنى عبد)، فإن الإسلام يحكم بالطفل لغير المسلم مع الحرية، ولا يحكم به للمسلم مع العبودية، كما تذكر بعض المدونات الفقهية والأصولية.

والإسلام يُعدّ ثورة تحررية شاملة للإرادة الإنسانية من كل عبودية لغير الله، مما يجعلها بحق أمانة مرتبة لمسؤولية ووعي بالحق والتزام به وفناء فيه، وفق تعبير الدكتور عماد الدين خليل.

ومن ثم حق القول إن التكليف (المسؤولية) هو أساس الحرية وعلامتها، وإن الإنسان الجدير بصفة الحر هو المؤمن بالله، فكلما زاد الإنسان إخلاصا في العبودية لله، زاد تحررا من كل مخلوق في الطبيعة، وحقق أقدارا أكبر في درجات الكمال الإنساني.

ويكفي الحضارة الإسلامية شرفًا أنها كانت إنسانية، تعمل من أجل الإنسان، أيًا كان موقعه في الزمان والمكان، أليست هي الحضارة المنبثقة عن العقيدة النازلة من عند الله سبحانه وتعالى، الذي خلق الإنسان وعلمه الأسماء كلها، وحمله في البر والبحر، وفضله على الخلائق، ومنحه السيادة على العالمين.

والشخصية الإنسانية ذات أبعاد مادية وروحية، وذات فطرة ثابتة، ولها قيم ومفاهيم وأخلاقيات تؤمن بها، وتحدد سلوكها، وتتفاعل مع الواقع الاجتماعي الذي تعيش فيه، وتتأثر به إيجابا وسلبا، وكلما كان التوازن حاضرا في حياة هذا الإنسان، بين أبعاده الروحية والمادية، كلما ارتقى وسمى، وتحققت فيه الإنسانية في أسمى تجلياتها، ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص:٧٧] .

وإنسانية الوجهة تعيد الاعتبار للإنسان وتؤكد على كرامته ومحوريته، سيدا في الكون لا سيدا عليه، مستخلفا فيه لا قاهرا فوقه، فخالق هذا الكون بما فيه ومن فيه، هو خالقه ومولاه، وهو

سبحانه من تفضل على الإنسان بأن سخر له ما في الكون، قال جل شأنه: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية:١٣] .

والحرية والعدالة ليست قيما غربية، كما يخيّل للبعض، وإنما هي قيم إنسانية عامة، تحملها الأديان، والمذاهب، والفلسفات، والتيارات الفكرية والحركات السياسية، والاجتماعية، في كل زمان ومكان. وهؤلاء الذين يربطون القيم السامية بحضارة ما، ينسون أن التاريخ إنما هو صورة للفعل الإنساني، والإرادة الإنسانية على الأرض، وليس مقتصرا على حضارة معينة.

إن ما يهم حقا في حماية الكندور (النسر الأمريكي) وأمثاله ليس لأننا في حاجة إليه، بقدر ما إننا في حاجة إلى تنمية الصفات الإنسانية اللازمة لحمايته، لأنها هي ذاتها الصفات التي تلزمنا لحماية أنفسنا، وفق تعبير «أيان مكميلان»، وفي هذه العبارة إشارة واضحة إلى أن الإنسانية لا تتجزأ، سواء كان التعامل مع الإنسان أو الحيوان أو الطبيعة، فصفة الإنسانية عند صاحبها ملازمة له في كل تواصل أو علاقة يقوم بها في هذا الكون، وخُلق الرفق والرحمة سمة واضحة في كل تعامل له، مع الإنسان أو الحيوان أو الطبيعة، والإشارة القرآنية التي حددت هدف بعثة الرسول ﷺ بأنه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧] ، تضع البشرية جمعاء

والمسلمين بوجه خاص أمام مسؤولية توسيع مساحات الإنسانية، التي هي إحدى تجليات الرحمة الإلهية والنبوية.

ويقتضي الاتصاف بالإنسانية توافر إرادة الاتصاف بها، وهذا يشير إلى أن (الأنسنة)، الذي يتحول بموجبها الإنسان من كونه مخلوقا إلى كونه إنسانا، يتم اكتسابها والتعود عليها من خلال مسيرة الإنسان في الحياة، وبمعنى آخر، فهي عبارة عن قرار واع يتخذه الإنسان بإرادة واقتناع، ذلك أن الانتقال من ردود الفعل (الغريزية)، التي تعتبر لصيقة بالحيوان، إلى الأفعال الإرادية المدروسة ذات الصلة الوثيقة بالإنسان، تتطلب دائما خيارات وقرارات صعبة وشاقة، وأنه بهذه الخيارات وتلك القرارات تنبثق الإنسانية تدريجيا من الحيوانية، وبعبارة أخرى، فإن ترقّي علاقة الإنسان بأخيه الإنسان من الناحية الغريزية الحيوانية إلى الناحية الإنسانية الواعية والمقصودة، هو التحدي الذي يوضع بين يدي جميع المربين في كل المؤسسات التربوية.

وقد ذكر صاحب كتاب عودة الوفاق بين الطبيعة والإنسان (ماري بيلت) مثالا على استحالة التعايش في ظل التقدم التكنولوجي وتراجع الضمير الإنساني، فلو أصبح بمقدور الإنسان حقا أن يصنع المطر، ويجعل الجو صافيا، لنشب نزاع دائم بين المزارعين والسياح، وسكان المدن وسكان الريف، ومربي الماشية، كما يكون الحال

عندما نتحدث عن استراتيجية البنتاغون والكرملين (بين أمريكا وروسيا)، بشأن البت فيما ينبغي أن يكون عليه حالة الطقس، وهذا يؤكد على أنه مالم يحقق الضمير الإنساني تقدما مناظرا للتقدم التكنولوجي، فسينقلب التقدم التكنولوجي على من يحرزونه بالدمار والهلاك، وهذا ما يجعلنا نؤكد على أن بناء السلام يرتبط دائماً بإحداث تغيير في العلاقات الإنسانية الفردية والجماعية والمؤسسية.

إن المجتمع الإنساني كما قيل ليس وليد نظمه السياسية أو الاقتصادية، بقدر ما هو صنيعة نظام التواصل الذي يسري في أوصاله، فبقدر رقي التواصل بين الإنسان وأخيه الإنسان، يرتفع سقف الإنسانية، ويميل الناس إلى التعامل بنوع من اللطف والتعايش والقبول بالآخر، كونهم من أصل واحد (كلكم لآدم)، وإن شرّقت بهم الاختلافات أو غرّبت.

إن مصير المجتمع الإنساني رهن بقدرة البشر أنفسهم على توجيه مسيرة تطور المعرفة، وعلى التصدي لتلك النزعات المترسِّخة لاحتكار إنتاجها، والتحكم في طرق استغلالها، وكيفية توزيعها، وفق تأكيد الدكتور نبيل علي، وإن كنا في عصرنا الحاضر نرى بوضوح ترسخ النزعات الأنانية للتحكم في إنتاج المعرفة واستغلالها وعنصرية توزيعها، وهذا مؤشر على تراجع مساحات الإنسانية، وحضور غريزة التوحش التي نجد بعض آثارها في

علاقة المنتِج والمستهلك، كما هي بين القوي والضعيف والغني والفقير، ودول العالم الأول والثاني وبقية العوالم التي يسمونها خداعا (العالم النامي)، وهي أبعد من أن تكون كذلك في ظل الهيمنة الاستعمارية.

والإسلام في هذا المضمار يقدم رؤيته في الترقي بالإنسانية، وطرق اكتسابها وترسيخها، فهو قد بنى كل مناهجه وبرامجه التغييرية على تغيير ما بالنفس، فمن خلال الذات الإنسانية تنطلق عمليات التغيير. وعلى أساس منها يقوم بناؤه، وعلى محور النفس تدور عجلته، بل جعل التغيير الإلهي ثمرة ونتيجة لتغيير ما بالنفس الإنسانية، وتغيير ما بالنفس يتم بالتزكية التي هي عملية تربوية بالدرجة الأولى، وهي من شأنها أن تقوم بتحصين الإنسان من داخله ضد قابليات الشر والانحراف، وسائر المؤثرات الخارجية، وتحجيم نوازعه الداخلية، وتوجيه طاقاته باتجاه العمران والبناء في إطار الضوابط العقلية والتزكية السلوكية والأخلاقية، ليصبح الإنسان عُمرانيًا بناءً نافعًا لنفسه، مفيدًا لبني جنسه، مدركًا لانتمائه الإنساني، ودوره العُمراني، غير مستلب من أحد، متوازنًا بحقيقته الإنسانية.

مرايا الآخر... كيف نستفيد منه، وكيف نتقي شرّه؟

سبق وأن تحدثنا في بداية هذا المرايا عن أهمية معرفة الذات ومركزيتها، التي على ضوء معرفتها يتم التعرف على الذوات الأخرى، فعندما يعرف الإنسان ذاته على حقيقتها، ويعرف الآخر على حقيقته، عندها سيتمكن من اتخاذ القرار الصائب في اللحظة المناسبة. أما عندما تتشوه معرفة الإنسان بذاته، أو تتشوه معرفته بالآخر، فإنه عندها سيتخذ القرار الخاطئ، وفي اللحظة الخاطئة. والنظر في الذات يُلزِمك النظر في الآخر، والنظر في الآخر يُلزِمك النظر في الذات.

وقد توقفت وأنا أعدُّ هذه المرايا عن الآخر أمام تشخيص دقيق أورده الدكتور وليد سيف في مذكراته (الشاهد والمشهود)، ووجدتني أميل إلى كثير مما توصل إليه، فقد ذكر أن ثمة من يحجب عيوب الذات بعيوب الآخر، وثمة من يحجب عيوب الآخر بعيوب الذات.

فالأول هو العربي الذي يداري نرجسية هويته المجروحة المهددة، فيمتنع بأسوارها المغلقة، ويعيش في مثال تاريخي متخيل، يحمله على كره الآخر المختلف، الذي لا يرى فيه إلا تهديدا وبديلا. والثاني هو ذاك العربي الكاره لذاته، المستلَب المستغرب، الذي لا يرى ذاته إلا في مرآة الآخر وامتدادا له، فصار حال هذا العربي

يدعو للعجب، فهو إما هذا أو ذاك، فإن لم يكن هذا أو ذاك، وجدتَ من يرد محاسن الآخر الغربي التي لا يستطيع تجاهلها إلى مصادر عربية إسلامية تاريخية، فهي بضاعتنا ردت إلينا، ويرد عيوب الذات إلى مصادر التأثير والتأثر بالحضارة الغربية الظاهرة والباطنة، (فصار أحسن ما عند الآخر منا، وأقبح ما عندنا منه)! وبذلك يعتدل الميزان في تصور هؤلاء، وهيهات له أن يعتدل، وإن أوهمنا أنفسنا بأنه كذلك.

حقا! ما الذي دهانا إذن حتى قايضنا الآخر، فأخذنا أسوأ ما عنده في الحاضر، بأحسن ما كان عندنا في الأمس؟ وكيف تسنى له أن يبني على إنجازات ماضينا، مالم يتسن لنا أن نبني عليه؟ ولماذا ننقسم بين من يلتجئ إلى ماضي الذات، ومن يلتجئ إلى حاضر الغير؟

والمتأمل يجد أنه ومنذ بدأ الاحتكاك الحديث بالغرب، والعرب يتساءلون: لماذا نهض الغرب المتغلِب، وانحط العرب حتى صاروا تبعا لغيرهم، تتناهبهم الأمم، وتتداعى عليهم الأمم، كما تتداعى الأكلة على قصعتها؟ وهو سؤال لا يشكل هاجسا ملحا مؤرقا إلا عند أمة استدبرت إرثا حضاريا عظيما، وأوغلت في حاضر بائس، كما يشير إلى ذلك الدكتور وليد سيف أيضا. فلا هي قادرة على نسيان حضارتها الغاربة، ولا هي قادرة على استئنافها، والتأسيس

عليها، لصنع حاضر متقدم، يحررها من عبء الانقسام، وصار حالها دائرا بين كره الذات وكره الآخر، أو بعبارة أخرى، بين عبادة ماضي الذات وعبادة حاضر الآخر! وكلاهما يغيّب حاضر الذات، الذي يصبح فضاء تتجاور فيه القشور الاستهلاكية المستوردة من الحداثة الغربية، دون فاعليتها الإنتاجية المادية والمعرفية، مع تقاليد التخلف الذاتي الموروثة من ماض توقفت حيويته الحضارية منذ حين.

إن التحصن ليس دائما انكفاء على الذات، وانطواء عليها، وإمعانا في الانعزال والتفرد. بل يكون، وبدرجة أقوى، بالتعرف على الآخر ومدافعته والإسهام في العطاء الحضاري العام والمشترك الإنساني انطلاقا من تلك الخصوصية.

والآخر هنا يتنوع وجوده سلبا وإيجابا، ومن ثم لا بد أن تتنوع المواقف حياله سلبا وإيجابا، ووفق عناصر الموقف، الوعي هنا ثلاثي الرؤوس والتفاعل، (وعي بالذات)، (ووعي بالآخر)، (ووعي بالموقف)، المتفاعل مع مستويات الوعي المختلفة، وفق تعبير الدكتور سيف الدين عبد الفتاح.

إن منطلق أيّ حوار إنساني ناجح وناجع مع الآخر، هو قراءة الذات أولاً، ثم قراءة الآخر ثانيا، قراءة علمية موضوعية تستصحب البعد الرباني في النشأة والخلق والمصير، وعلى أن يتم بناء هذه القراءة

على أسس راسخة، وعلى نور من الوحي، يثبِّت الثقة بالنفس، ويجعل تواصلنا بالآخر مثمرا.

ولتحسين وعينا بأنفسنا، علينا أن نعترف بوجود الآخر، القريب والبعيد، والصديق والعدو، فهم جميعا ومن غير استثناء، بمنزلة مرايا، نرى فيها أوضاعنا وإنجازاتنا ووجوه قصورنا، ونعني بالاعتراف بالآخر وبوجوده، وفق تعبير الدكتور عبد الكريم بكار، أن نعتقد أن لديه شيئا ما يمكن أن نستفيده، ونتعلمه منه، كما نعتقد أن لديه شيئاً ما من القيم والمصداقية، التي تجعل توجهنا للاستفادة منه شيئا مرغوبا ومطلوبا.

ودعوني أوسع مجال الرؤية أكثر لتتضح الصورة بشمولها ـ وقد سبقت الإشارة إلى ذلك في إحدى المرايا السابقة ـ، حيث إن التبعية والتقمص والذيلية والتماهي مع الآخر غير التواصل الإنساني والتلاقح الحضاري، ففي الأولى يكون الطرف التابع (نحن أو هم)، في وضع الضعيف المقلِّد للقوي، وفق فلسفة ابن خلدون، وفي هذا المستوى يكون التقمُّص للآخر وتقليده والتبعية له - غالبا - في (الأشكال) دون (الجواهر)، وفي (المظاهر) دون (المضامين)، سواء تمثل ذلك في (المأكل أو المشرب أو بعض السلوكيات والعادات)، وهذا الأخذ (الشكلي المظهري) يكون على حساب ما لدى الآخر من (تنظيمات ومؤسسات ومراكز ومصانع وتقنيات)، هي التي

تأسست عليها تلك القوة التي أدهشتنا، وجعلت من بعضنا ضحية أفترسها الغرب، وجعلت منها أبواقا تسوّق لمشاريعه الاستعمارية في المنطقة (العلمانيون نموذجا)، واكتشفنا أننا لم نأخذ من الآخر إلا أسوأ ما لديه، فكنا زبائن مثاليين، ومستهلكين رائعين(للقشور والشكليات والمظاهر)، وفاتنا أن نكون تلاميذ نجباء لحضارة الآخر، فنأخذ منهم (المضامين والجواهر)، وما يمكن أن يكون سببا لنهضتنا كما كان سببا في نهضتهم، دون أن يعني ذلك التنازل عن هويتنا وثوابتنا الراسخة.

أما التواصل الإنساني والتلاقح الحضاري في صورته السويّة، فأمر آخر، لا يتم إلا بين حضارتين متكافئتين، تقدم كلا منهما للأخرى إنتاجها الحضاري (المادي والمعنوي)، في تبادلية مثمرة، قد يحدث فيها، وفي أحيان كثيرة، نوع من التدافع الذي قد يصل إلى حد الصراع المرير، ولكنه لا يعني وصول هذا الصراع إلى درجة أن تجتث إحداهما الأخرى.

إننا نعيش في عالم لا يعبأ بالضعفاء، ولا يعطي بالا للمهازيل، ولا يرفع قبعته إلا للقوي، فنحن في حضارة عالمية تؤمن (بحق القوة لا بقوة الحق)، وما نلاحظه من تقليد وتقمّص وتماهٍ مع الآخر في أعياده وعاداته وأسلوب حياته، ما هو إلا مؤشر ودلالة على هزيمة نفسية عند البعض، وتضخيم للآخر على حساب الذات، وتحويل

الآخر إلى مقياس ومعيار وقدوة عند البعض الآخر، وهنا تتأصل التبعية، ويتجذر التقليد الببغائي. ومما يؤسف له، هو أن الانفتاح على الآخر لدينا أضحى نوعا من التفريط في الذات.

وفي المقابل لا أظن أن انطواءنا على ذاتنا، سيجدينا نفعا، أو يرفع لنا قدرا، بل هو على العكس من ذلك سيعزلنا عن محيطنا العالمي، ويحولنا إلى (محميات)، تشبه المحميات الطبيعية والحيوانية التي يحافظ عليها خشية الانقراض.

وهنا يبدو السؤال الكبير، الذي شرّق في الإجابة عنه الكثير وغرّب، وهو: ما طبيعة الانفتاح على الآخر، وما هي أسس التواصل الإنساني معه، وما هي شروط التلاقح الحضاري مع الآخر، دون الدخول في (جُحْره) والتماهي معه والتبعية له؟ هنا يكمن التحدي بكل تأكيد، ويتمثل في الإجابة الحضارية الواعية الراشدة على الأسئلة آنفة الذكر، وعندها سيصبح الآخر بالنسبة لنا مصدر إثراء وثراء، ورصيد تجربة، وعامل إلهام، وشرارة تحد ومنافسة حضارية، والتي سيكون لها ثمارها على البشرية جمعاء. وهذا لن يتأتى إلا عندما ندرك:

من نحن!؟ على وجه اليقين.

وماذا لدينا؟ على سبيل القطع.

وماذا نريد من الآخر؟ على وجه الدقة.

إن الذوبان في حضارة الآخر وثقافته، مؤشر ورديف للهشاشة وعدم التماسك، وهو تأثر بالآخر يصل أحيانا إلى درجة التماهي، وفي الذوبان خواء، ولا توجد فيه مراكز ثبات، وفي الذوبان نوع من الميوعة والسيولة والرخاوة التي تسمح بدخول مؤثرات الآخر إلى الصميم. وهناك فرق كبير عند أصحاب الثوابت بين (المرونة) وبين (الميوعة والسيولة)، ففي الأولى هناك مرونة تدور مع الثوابت ولا تتجاوزها، وفي الثانية هناك ذوبان بلا حدود قد يصل إلى حد السيولة، وربما يصل إلى حد التبخر والتلاشي، كما هو الحال في خصائص السوائل.

والافتتان بالآخر إلى درجة إسقاط الذات مشكلة في حد ذاتها، مع اعترافنا بمكانة إنجازات الآخر وتفوقه في بعض القيم الإنسانية، وضرورة أن نستفيد من تجربته لا أن نفتتن بها. والحقيقة أن الحياة دون آخرين ليست حياة على الإطلاق، فنحن في حاجة للأخرين (من كانوا ومهما كانوا)، ليس من أجل تحقيق أحلامنا فحسب، بل نحتاجهم لنعيش ونتنافس ونتطور.

وعلى العموم فإن علاقتنا بالآخر تحتاج منا أن نكون في مستوى يؤهلنا لكل الخيارات، أما وضعنا الحالي فلا يؤهلنا لأي نوع من أنواع العلاقات السوية، لأن الآخر هو الذي يفرض نوع العلاقة وبالطريقة التي يريد، حتى في حالة السِلم، فهو سِلمٌ كما يريده

هو، لا كما نريده نحن، أو كما ينبغي أن يكون، وإذا أردنا سلاما حقيقيا مع الآخر، فلا بد أن يكون سلاما عادلا، يرضى به جميع الأطراف (سلام الشجعان)، ولكن الواقع يقول لنا غير ذلك، فهناك فرض لحالة الحرب وحالة السِلم من قبل الآخر، وعلينا كمسلمين التنفيذ دون قيد أو شرط.

وبناء على ما سبق، فعلينا ألا نقف أمام إنتاج الآخر (الغربي تحديدا) موقف الانبهار والتبعية والتسليم المطلق، بل علينا أن نتعاطى معه بنوع من الثقة بأنفسنا، وأن نستفيد مما لديه بما لا يتعارض مع ثوابتنا، حتى لا يتحول تواصلنا بالآخر إلى نوع من التبعية.

والذات لم تعد ذاتا بكرا، كما تتبدى للبعض، والآخر لم يعد آخرا مغايرا ومفارقا، كما يتوهم البعض الآخر، بل بقدر ما يسكننا الآخر نسكنه، والحدود بين الذات والآخر لم تعد واضحة بما يكفي لإقامة الحدود الفاصلة، التي تعني المفاصلة، حتى تصبح الذات ذاتا خالصة، والآخر آخرا محضا.

ولو رجعنا قليلا للوراء، حين بدأ نجم الاستعمار في البلاد العربية والإسلامية يأفل ويغرب (وإن لم يكن أفولا وغروبا مكتملا)، ويبزغ فجر الاستقلال والحرية (وإن لم يكن -كذلك -بزوغا مكتملا)، حتى طفت إلى سطح الوجود تحديات جسام، وأسئلة عظام، حول قضايا مختلفة، تمس العلاقة بين المجتمع والدولة، والدين والحداثة،

والرجل والمرأة، والذات والآخر، على سبيل المثال لا الحصر. ولقد انقسمت النخب المثقفة في محاولتها رفع هذه التحديات، والإجابة عن هذه الأسئلة إلى اتجاهين، فمن منتصر لفكرة ربط الحاضر بالماضي، طمعا في تحقيق النهوض والإقلاع، ومن عامل على ربط حاضر الأمة بحاضر الغرب المنسحب، طلبا لتحقيق الندية معه.

وبقدر ما اغتربت الفئة الأولى (التراثيون) عن الحاضر، وهي تجتهد في تقليد الماضي، اغتربت الفئة الثانية (الحداثيون) عن هذا الحاضر، وهي تقلد الآخر، جاعلة من حاضره مستقبلها المنشود، وأنّى لهاتين الفئتين أن تقودا مجتمعاتهما إلى بر الأمان، وهما تتغذيان وبصورة حرفية تقليدية من نموذجين مختلفين، يتطلب الأمر أن يخضع هذان النموذجان لمراجعة نقدية فاحصة، حتى يصبحا صالحين لحاضر المجتمع والأمة.

والمتأمل في خريطة الواقع، يرى أمرا عجبا، حيث يجد أن الماضي قد ارتبط بالذات، كما ارتبط المستقبل بالغير، وكذلك ارتبط الاعتزاز بالذات بالعزوف عن الغير، وارتبط الإقدام على هذا الغير بالتنكر للذات. فلا تزال كل طائفة تنشد الفناء إما في (الذات المفقودة) تارة، أو في (الآخر الموعود) تارة أخرى، حتى إذا ظنت أن زمن (الفناء) قد حلّ، لم تجد إلا الضياع والإحباط، وفق تعبير الدكتور خالد حاجي.

والمشكلة في علاقتنا بالآخر، الذي لم يعد هذا الآخر خارجا عنا، بل هو داخلٌ فينا بشكل أو بآخر، هو جزء من مجتمعاتنا بصورة من الصور، بمعنى أنه تجذّر داخل منظومتنا المجتمعية، وبالتالي فإن إقصاءه أو إلغاءه ليس فقط لم يعد مطلوبا، بل لم يعد ممكنا، لأنه متجذّر، وعلينا أن نفكر بجدية في كيفية إدماج هذا الآخر في سياق التطور التاريخي الطبيعي لمجتمعاتنا، حتى لا نتحوّل إلى نسخة مشوّهة منه، أو إلى نسخة مشوّهة من ماضينا. ولن نفلح أو نجاوز مكاننا، ما دمنا نبحث عن ميزات الآخر، ونغضّ الطرف عن معايبه، ولو كثرت، ونبحث عن عيوبنا، ونغضّ الطرف عن ميزاتنا، وإن قلت.

وبعض الناس يرفضون على نحو خفي أي مقارنة لمجتمعاتنا بالمجتمعات الأخرى، حتى لا نقف أمام (المرآة)، ونرى ما لا يسر. إن الوعي بالذات فرع عن الوعي بالآخر، أي أن الآخرين من أعداء ومخالفين هم لنا أشبه (بالمرآة)، فإذا شوهناهم، ووصفناهم بما ليس فيهم، فإننا نكون حرمنا أنفسنا من الرؤية الصحيحة لأوضاعنا وأحوالنا، وفي هذا إساءة بالغة للذات، وحرمان أكيد لها من النقد الذاتي والموضوعي، كما يؤكد على ذلك الدكتور عبد الكريم بكار.

ومع ما يمكن أن يقال من أهمية بالغة للتواصل مع الآخر، إلا أن

واقع الحال، يبين لنا وبما لا يدع مجالا للشك، أننا تركنا تراثنا بخيره وشره، إلا فيما ندر، وتبنينا تراث الآخر الغربي بكفاءة عالية، وخاصة في جانبه السلبي، وذلك دون فهم لمدلول ما نفعل، ودون أن نقوم بعملية نقدية إبداعية لتراثنا ولتراثهم ولحضارتنا ولحضارتهم.

لقد تبنينا نموذجهم الحضاري الحديث، والتهمنا منتجاتهم الحضارية، التي وضعناها في بيئتنا، والحال أن بيئتنا لم تناسبها بعض تلك المنتجات الحضارية للآخر بل تصارعت معها في كثير من الأحيان، فكنا كالمنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقي. إن الموقف النقدي، حسب تعبير الدكتور عبد الوهاب المسيري، يتطلب معرفة خاصة بالذات وبالآخر، كما يتطلب ثقة عالية بالنفس، وملكات نقدية خاصة للتعامل مع هذا وذاك.

وحين نعتقد أن فلانا من الناس هو كتلة من الشر، فإننا نحرم أنفسنا من الاستفادة منه وتعلم بعض ما لديه، والأمر ينطبق على الجماعة والدولة والحضارة، وهذا جزء من ضريبة (المعتقدات الخاطئة) عن الآخر، على حين أنني أعتقد (والكلام للدكتور عبد الكريم بكار) أن «جزءا من حلول مشكلات أي أمة يكون موجودا لدى أعدائها».

إن المنهج العلمي القائم على النقد أساسا، يقتضي تمحيص مفهوم

(الانتماء والولاء) للذات أو للآخر، فإذا تم تمحيص الذات، لزم من ذلك التزام (أصولها وثوابتها)، التي بها كانت ولا تزال (ذاتا)، ولزم جعل ما هو (أصل ومنطلق ثابت وقارّ)، أصلا ومنطلقا ثابتا وقارّا. وجعل ما هو (متحرك ومتغير)، متحركا ومتغيرا.

فإذا تم التسليم بربانية الوحي، والتمييز فيه بين دوائر (الثبات والمرونة) و(القطعيات والظنيات)، ثم تجليات ذلك في تاريخنا، أمكن من جهة أن نستوعب عملية التصحيح الثقافي الداخلية، وأن ندرك، من جهة أخرى، حدود التثاقف وتخومه مع الآخر.

أما أن نجعل عملية التثاقف قائمة على (تاريخ بلا أصول) و(حضارة بلا أسس وقيم) ... أو قل قائمة على (متغيرات بلا ثوابت)، فلا شيء يضمن -مهما كان سلاح النقد حادا -الصمود أمام تيار العولمة الكاسح الذي يحمل رايته الآخر. وهل نعدم شواهد من تاريخنا انهزم فيها المسلمون وانتصرت المبادئ؟ (المغول نموذجا)، بل وهل كان الفتح الذي به تحققت العالمية الأولى فتحا إلا بهذه المبادئ والأصول؟ كما يشير إلى ذلك الدكتور سعيد شبّار.

ولعل أول إشكالية تثيرها العولمة (التي يتحكم بزمام أمرها الآخر) هو الغموض الذي يكتنفها، والأهداف الخفية التي تستبطنها، ويتبدى ذلك في أن واقع حال العولمة هو حالة تطبيع عالمي، لعولمة نموذج الحياة الغربية، بكامل أبعادها، الاقتصادية، والثقافية،

والسياسية، والاجتماعية، والتربوية، المدفوعة بأيديولوجية النظام الرأسمالي العالمي، لتنميط الحياة على النموذج الغربي.

والعولمة بذلك، هي فعل إرادي، من الدول الرأسمالية الكبرى، لاختزال (الآخر)، وصولاً إلى إحلال (الذات) محل (الآخر) -عنوة وبالقوة -وتنتهي بأشكال حياتية معممة على سائر العالم، وما يستلزمه ذلك من شتى صور التدخل والقهر والإذلال التي تمارس على دول العالم الثالث للسير في اتجاه نمط حضاري واحد، هو النمط الغربي، ولعل وعينا بما لدينا من خلال معرفة ما لدى الآخرين، قد يكون أهم مكاسبنا من العولمة التي أظل زمانها.

إن التعبير المغالي عن الهُويّة، أو الخوف المفرط عليها أمارة ضعف ونذير تخلف؛ إذ «غالبًا ما يختلط التشديد على الانتماء بالتباهي بالتخلف»، كما لاحظ عزمي بشارة. فالذين يحدوهم الخوف على الهوية، من دون الثقة بالنفس والانفتاح على الغير، ينتهي بهم الأمر غالبًا إلى إفقار الذات، حرصًا على حمايتها من الآخر، أو إلى التكوين السلبي للذات، تأسيسًا لنفي الآخر، وهذا ما يقود في النهاية إلى مناقَضة صريحة لبقية الإنسانية، وانفصال كامل عنها.

وإن محاولة إثبات الذات بإنكار الآخر، وتسويغها بوصمه بكل العيوب، والاحتجاج للذات بعورات الآخرين، بدلا من قيمتها الذاتية في استباق الخيرات، لن يغير واقع الحال، حيث ستبقى الذات على ضعفها ،

ويستمر الآخر في جبروته. وأستطيع بكل ثقة أن أعدهم (والكلام للدكتور وليد سيف) بأن الآخر لن يختفي على كل حال، ولن تخلو الأرض لأي فريق منهم، ولن يتحقق له الفردوس الأرضي الذي يحلم به، حيث لا يرى غير صورته في مرايا الكون، وما فردوسه الأرضي المتخيل إلا جحيم الآخرين! فهل ينتهي الآخر إلى مقولة سارتر: « والآخرون هم الجحيم»! وإذا كنا جميعا (آخرين) بالنسبة إلى غيرنا، فلا ثم في الأرض إذن إلا الجحيم!

والمتأمل للقرآن الكريم يجد أنه يعلمنا أن أساس المشكلة لا ينبثق من وجود (الآخر)، فالأخر موجود، لكن أساس المشكلة يتمثل في وجودنا الخاطئ الضعيف المقصِّر. ولتحسين وعينا بأنفسنا علينا أن نعترف بوجود الآخر القريب والبعيد، والصديق والعدو، فهم جميعا ومن غير استثناء بمنزلة (مرايا)، نرى فيها أوضاعنا وإنجازاتنا ووجوه قصورنا، ونعني بالاعتراف بالآخر وبوجوده، أن نعتقد أن لديه شيئا ما يمكن أن نستفيد منه، ونتعلمه منه، كما نعتقد أن لديه شيئا (ما) من القيم والمصداقية، التي تجعل توجهنا للاستفادة منه شيئا مرغوبا ومطلوبا. وعلينا أن نتذكر أن فهمنا للآخر لا يعني موافقتنا له، إنما يعني فقط، أن نكون قادرين على الرؤية بعينيه، وقلبه، وعقله، وروحه، حسب تعبير «سيفن كوفي» .

إن الآخر قد يكون خطرا جدا، وقد يكون محايدا، وقد يكون

منافسا، لكن لديه دائما (جزء) من الحل لبعض ما نعاني منه، ولدينا (جزء) من الحل لبعض ما يعاني منه، كما يؤكد على ذلك الدكتور عبد الكريم بكار، وبناء على هذا، فكما إن علينا أن نفهمه بطريقة ممتازة، فإننا مطالبون أيضا بأن نساعده على أن يفهمنا بصورة واضحة، وذلك من خلال عرض منهجيتنا ورؤيتنا الحضارية، ومن خلال ترجمة سلوكنا وأوضاعنا لتلك المنهجية وتلك الرؤية، إلى جانب عملي.

وقد يكون جوهر مفهوم التحيز الذي علينا أن ندركه جيدا، هو أن التمحور أو التمركز حول (الذات) والانغلاق عليها، ورؤية الآخر من خلالها، وقياسا عليها، ليست رؤية صائبة وسليمة على طول الخط، وهذا يعني من جانب آخر، أن نفي الآخر نفيا كاملا خارج إطار التاريخ، أو الوجود، أو العلم، والسعي نحو استبدال ماهيته أو هويته، وإحلالها بمحتوى يتفق ومعطيات الذات وأهدافها، بهدف القضاء على تفرده وخصوصيته، وإعادة إدماجه في النسق الذي ترى الذات المتحيزة أنه الأمثل، طبقا لمنظورها للإنسان، والكون، والحياة، أو نسقها الفكري، وعقيدتها، ومثلها العليا، كل هذا لا يعبر عن ذات واعية وناضجة، بل يشير إلى ذات لا تدرك أن نفي الآخر هو نفي لها، مهما كانت مبررات زوال الآخر، أو مبررات تثبيت الذات.

وكثيرا ما يتوقف الوعي بالذات على الوعي بالآخر، وأن الجهل بما عند الآخرين سوف يحرمنا قطعا من جزء لا يستهان به من وعينا بذاتنا، وثقافة الذات تتعزز كلما تلاقحت بثقافة الآخر، وكلما بنيت على النقد والحوار. وعند الاحتكاك بالآخرين، والاحتكاك بالثقافات الأخرى، فإن ثقافة الفرد تأخذ من الآخرين، ومن الثقافات الأخرى، ما تراه مفيدا لها، فتصقلها وتحسّن بعض عناصرها، ونمو الذات سيتم من خلال اكتشاف المزيد من الذات عند الآخر.

إن الآخر بالنسبة لنا أشبه بالمرآة -كما أسلفنا -نرى فيه عيوبنا ومحاسننا. والعلاقة مع الآخرين مرآة للذات، ولهذا فإن تحسين العلاقات مع الآخرين يقتضي تحسين سلوكياتنا وأوضاعنا. وربما تكون التعددية، مصدرا للثراء الفكري، ودافعا على تحريك العقل نحو الاجتهاد والإبداع، ومنبها على الأخطاء والانحرافات، ومرايا يرى فيها الجميع العيوب والأمراض، فيسرعون إلى علاجها والخلاص من مضاعفاتها.

كل ما سبق الإشارة إليه من علاقة الذات بالآخر ينبغي أن تنطلق من مرجعيات ثابتة في الذات، لأن المجتمع الذي لا يحدد مرجعيته النهائية ويبلورها، بحيث تصبح الإطار المرجعي لكل نشاطاته، حسب إشارة الدكتور عبد الوهاب المسيري، فإنه سيتبنى مرجعية الآخر النهائية بوعي أو من دون وعي، وسيرتب واقعه حسب أولويات الآخر

وليس حسب وعيه وإدراكه، وتجربته وواقعه.

ويمكننا القول في نهاية هذه المرايا، أن الاستماع لمن هو أكبر منك، ولمن هو مختلف عنك، مفيد جدا لك، على المدى القريب والمتوسط والبعيد، لأن الأول يمنحك خلاصة تجربته، والآخر يمنحك الصورة المناقضة حتى تستطيع أن تتبين، والاستماع لا يعني الانصياع، بل يعني التفكر وإعمال العقل، والحكمة ضالة المؤمن أنّى وجدها فهو أحق الناس بها، كما قال الصادق المصدوق صلوات ربي وسلامه عليه.

نبذة مختصرة عن المؤلف

البيانات الشخصية:

- الدكتور: يحيى أحمد حسين المرهبي.
- أستاذ أصول التربية المساعد، كلية التربية والعلوم التطبيقية والآداب ـ جامعة عمران.
- محل وتاريخ الميلاد: حجة ٥/٢/ ١٩٧٣م.
- محل الإقامة: الجمهورية اليمنية / محافظة عمران ـ مدينة عمران ـ حارة النهضة السكنية ـــــ شارع ٢٢مايو.
- رقم الموبايل: ٠٠٩٦٧٧٧٤١٥٥٦٠٢
- بريد الكتروني:almerhbi2010@gmail.com

المؤهلات العلمية:

١. (٢٠١٦) دكتوراه فلسفة التربية قسم أصول التربية (سياسات تربوية) / جامعة الدكتور /بابا صاحب امبيدكار/ مهاراشترا / اورنق أباد / جمهورية الهند.
٢. (٢٠٠٨) ماجستير أصول تربية ـ جامعة صنعاء ـ كلية التربية للعام بتقدير عام: ٨٢,٥٪ جيد جداً.
٣. (٢٠٠٤) تمهيدي ماجستير أصول تربية ـ جامعة صنعاء ـ كلية التربية للعام بتقدير عام: ٨٢,٦٦٪ جيد جداً.
٤. (٩٨ / ٩٩) بكالوريوس تربية ـ كلية التربية عمران ـ جامعة صنعاء بتقدير عام جيد للعام ٩٨/٩٩م.

الإنتاج العلمي:

١. رسالة الدكتوراه بعنوان: (دراسة واقع تربية المواطنة في المدارس الثانوية في العاصمة صنعاء).
٢. رسالة الماجستير بعنوان (العوامل المؤثرة على قيم المواطنة لدى طلبة المرحلة الثانوية بمحافظة عمران).
٣. لديه ثلاثة أبحاث منشورة باللغة الإنجليزية في مجلات محكمة في جمهورية الهند.

📖 عنوان البحث الأول: « مسؤولية المؤسسات الاجتماعية في بناء قيم المواطنة لدى طلابها». ٢٠١٣م.

📖 عنوان البحث الثاني: « دور الأسرة والمدرسة في

تطوير قيم المواطنة لدى أبنائها التلاميذ». ٢٠١٦م.

📖 ج ـ عنوان البحث الثالث:» آليات تفعيل قيم المواطنة لدى طلبة المرحلة الثانوية في الجمهورية اليمنية». ٢٠١٦م.

٤. ولديه بحثين منشورين في مؤتمرين علميين في اليمن:

📖 أ- دور الفروض الكفائية في تحقيق التنمية المستدامة، المؤتمر العلمي الثاني لجامعة الأندلس تحت عنوان (التنمية المستدامة ركيزة للأمن والاستقرار والسلام)، صنعاء، أكتوبر ٢٠٢٠م.

📖 ب- الدور المأمول من الجامعات اليمنية في خدمة المجتمع المحلي في ضوء الوظيفة الثالثة للجامعات، المؤتمر الثاني لجامعة البيضاء، الجمهورية اليمنية، أغسطس ٢٠٢١م.

٥. ولديه أبحاث وكتب لم تنشر ورقيا ونشرت الكترونيا هي:

📖 ١ـ كتاب بعنوان: (اطمئنان قلب). منشور ٢٠٢٠م

📖 ١ـ بحث بعنوان: (دور الفروض الكفائية في تحقيق التنمية المستدامة). منشور ٢٠٢٠م.

📖 ٢ـ كتاب بعنوان: (ثقافة البناء ... أفكار ورؤى مؤسسة ودافعة للبناء). منشور ٢٠٢٠م.

📖 ٣ ـ كتاب بعنوان: (على بصيرة ... تأملات في الدين والحياة). منشور ٢٠١٩م.

📖 ٤ـ كتاب بعنوان: (قد أفلح من زكاها). منشور ٢٠١٩م.

ونشر ورقيا عن طريق دار المشرق الدولية للكتاب ـ ماليزيا.

ملاحظة: رسالة الماجستير والدكتوراه، إضافة إلى الكتب الخمسة مرفوعة على موقع مكتبة نور وغيرها على شبكة الانترنت، ومسموح بتنزيلها من هناك.

٦. كما أن لديه بعض المشاريع لكتب ودراسات وأبحاث لم يستكمل إنجازها وتحتاج إلى وقت.

تم بحمد الله

د. يحيى أحمد المرهبي

في هذا الكتاب...

أصحـــاب عادة العجز عن رؤية الذات، لا يرون أنفسهم إلا من خلال رؤيـــة الآخريـن لهـم، وهـو مـا نسميـه (المِرآة الاجتماعيـة)، أي آراء النـاس فيهـــم وأقـاويلهـــم وتصـوراتهـم عنهـم. وحيـن تكون المرآة الاجتماعية هي المصدر الوحيد لرؤية أنفسنا، فسـوف تكـون صـورة ذواتنا لدينـا مثـل انعكاسات أنواع المرايا، التـي تظهـــر فيهـا الصـورة تـارة مصغَّـرة، وتـارة مكبَّـرة، وتارة مفلطحة، وتارة مكسَّرة، وتارة تظهر فيها العينان جاحظتين و،تارة صغيرتين مثـل الثقوب.